مقامات التعبير بـ (ألاَ) الاستفتاحية

فى

شعر النابغة الذبيانى

(دراسة بلاغية)

الدكتور

على عبد الموجود نور الدين

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الإنسان ومعلمه البيان ، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد ، وأوتى الحكمة وفصل الخطاب ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن جوهر العمل البلاغى يتمثل فى تفقد الأبنية الشعرية ودراستها دراسة بلاغية تذوقية .. وذلك لعظم منـــزلة الشعر فى لغة العرب وبلاغتهم ، إذ هو " معدن البلاغة ، وعليه المعول فيها " [(١)] .

وقد احتل النابغة الذبيانى منـــزلة رفيعة ومكانة سامقة بين شعراء الجاهلية ، حتى عده ابن سلام الجمحى فى الطبقة الأولى [(٢)] .

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة : " مقامات التعبير بـــ " ألا " الاستفتاحية فى شعر النابغة الذبيانى – دراسة بلاغية"، والتى تسير فى ركب الدرس البلاغى التطبيقى ، القائم على المنهج البلاغى فى التحليل والتذوق .

ومما لاشك فيه أن اتجاه الدارسين فى البلاغة العربية إلى التطبيق فيه إصلاح للدرس البلاغى وإثراء له .

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٧ ، ٨ – تحقيق الشيخ / محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى بالقاهرة .

(٢) ينظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٢٥ – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٠ هـــ / ١٩٨٠ م .

وقد قرأت ديوان النابغة [١] قراءة متأنية فوجدت حرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " قد تكرر فى ستة مواضع ، فى مقامات ثلاثة ، هى :

- مقام الاستعطاف والاعتذار (موضع واحد) .
- مقام الهجاء (موضعان) .
- مقام العتاب والشكوى (ثلاثة مواضع) .

وهذا قد جعل البحث يأتى فى مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة :

المقدمة : ذكرت فيها قيمة البحث وأهدافه ، ومنهجه .

التمهيد : وذكرت فيه نبذة عن حياة النابغة الذبيانى وشعره ، وعن حرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " .

المبحث الأول : بلاغة التعبير بـــ " أَلاَ " فى مقام الاستعطاف والاعتذار .

المبحث الثانى : بلاغة التعبير بـــ " أَلاَ " فى مقام الهجاء .

المبحث الثالث : بلاغة التعبير بـــ " أَلاَ " فى مقام العتاب والشكوى .

وقد خلصت فى الخاتمة إلى أهم النتائج ، ثم ذكرت أهم مصادر البحث ومراجعه ، ثم فهرس للموضوعات .

وقد حرصت على تحليل كل موضع تحليلاً بلاغيًّا يقوم على تجلية السياق ، وبيان الأغراض والمقاصد ، وتحليل التراكيب اللغوية ، والأساليب البلاغية التى تمازجت مع " ألا " ، وذلك بقصد الكشف عن خصوصيات المعانى وأحوالها عند الشاعر فى هذه المواقف .

وأرجو أن يكون هذا البحث إضافة جديدة فى مسيرة الدرس البلاغى التطبيقى القائم على تذوق وتحليل الشعر العربى .

والله ولى التوفيق .

د / على عبد الموجود نور الدين

---

(١) ديوان النابغة – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – مصر – (الطبعة التى اعتمدت عليها) .

تمهيد

نبذة عن حياة النابغة الذبيانى وشعره :

النابغة هو : زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ بن مرة ابن عوف بن سعد بن ذبيان ... ينتهى نسبه إلى قيس بن عيلان بن مضر .

ويكنى أبا أمامة ، وهو أحد الأشراف الذين غضَّ الشعر منهم ، وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء [(١)] .

وانتهى قول النقاد فى سبب لقبه بـــ " النابغة " إلى العلو والظهور والشهرة من غير سابق وراثة .

والمادة اللغوية لكلمة " نبغ " تدل على التدفق والعلو والظهور [(٢)] .

نشأ النابغة فى قومه " ذبيان " ، وكانت منازلهم بين الحجاز وتيماء ، ولم يكد يتجاوز سن الحداثة إلى سن الصبا ثم الكهولة ، حتى وجد نفسه شاعرًا مطبوعًا كريم اللفظ والمعنى ، ثم تنتقل سمعته بين القبائل ، ويشتهر فى الأسواق والمواسم حتى تصل

---

(١) ينظر فى ترجمته :كتاب الأغانى ٩/ ١٦٤ – طبعة دار الشعب ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٦ – تحقيق / أحمد محمد شاكر – طبعة الحلبى ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ص ١٧ .

(٢) ذهب النقاد فى تأويل هذا اللقب مذاهب شتى :

– فبعضهم يقول إنه سمى بالنابغة لقوله :

فقد نبغت لـــهم منا شؤون (الأغانى ٩ / ١٦٤) .

– وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ، ومات قبل أن يهتر . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠٨ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١١٧ ط السلفية) .

– ويقال : إن اللقب مأخوذ من قولهم : نبغت الحمامة إذا تغنت وترنمت . (خزانة الأدب ٢/ ١١٦) .

– والأظهر أن سبب ذلك يرجع إلى ظهوره وشهرته فى الشعر من غير سابق وراثة . (ينظر : النابغة الذبيانى – الدكتور / عمر الدسوقى ص ١٤٠ ، ١٤٢ – دار الفكر العربى – الطبعة السادسة ١٩٧٤ / ١٩٧٥ م .

إلى عكاظ ، فينصب له فيها قبة من آدم ، ويحتكم إليه الشعراء فيقضى بينهم ، وكان حكمه مقبولاً ، ورأيه موفقًا رشيدًا [١] .

مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، كما مدح الحارث بن عمرو الغسانى ملك الغساسنة .

وكان له قصب السبق فى شعر الاعتذار ، وقصائده فى الاعتذار هى أجمل ما وقع فى الاعتذار عن مشهورات العرب [٢] .

أهم القضايا التى يدور حولها أكثر شعر النابغة :

يدور أكثر شعر النابغة حول ثلاثة أمور كانت من أهم شواغله ، ومن أهم مثيرات شعره :

١ - **الأمر الأول** : اهامه بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر ومحاولته تبرئة ساحته ، مما أهاج حرّ شعره ، من أمثال : الدالية التى أولها :

يَـــا دَارمَيَّـــةَ بالْعلْيـــاء فَالسَـــنَدِ

أَقْوَتْ وَطَـــالَ عَلَيْهـــا ســـالِفُ الأبَـــدِ

وهى من أكرم معادن الشعر ، وسيكون لنا معها وقفة بمشيئة الله تعالى فى هذا المقام .

٢ - **الأمر الثانى** : وهو أقل من سابقه أثرًا فى إنتاج شعر النابغة ، و هو هموم قومه ذبيان ، فقد كان النابغة من أبرز رجال قومه ، ولم يكن بعيدًا عن صناعة الأحداث كغيره من الشعراء ، وإنما كان من صناع الحدث .

---

(١) ينظر : ديوان النابغة الذبيانى ، ومقدمة محقق الديوان " محمد أبى الفضل إبراهيم " ص ٥ – طبعة دار المعارف – مصر .

(٢) ينظر : العمدة فى محاسن الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى ٢/ ١٥٥ – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – طبعة دار الطلائع بالقاهرة ٢٠٠٦ م .

٣ - **الأمر الثالث** : وهو قليل جدًا ، وهذا الذى لم يكن ثمرة ما ألم به من محن ، كوصف الفرس ، وذكر القطا وغير ذلك [١] .

معانى " ألا " فى الكلام :

" ألا " حرف يرد لثلاث معانٍ :

الأول : استفتاح الكلام وتنبيه المخاطب ، وهى تدخل على الجملة الاسمية ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة يونس الآية ٦٢ ، والفعلية نحو قول الشاعر :

أَلا أَيُّهـــا اللَيـــلُ الطَويـــلُ أَلا اِنجَلـــي

بصُبح وَما الإصباحُ مِنكَ بأَمثَـــل [٢]

وعلامتها صحة الكلام بدونها [٣] ، أى صحته تركيبًا وإعرابًا ، أما معنى وسياقًا ، فإن المعنى لا يتم دونها حين يقتضيها المقام ، مثلها فى ذلك مثل الحال حيث لا يتحقق تمام فهم مقصود الكلام دونها ، مع أنها فضلة عند النحاة .

وكونها استفتاحًا للكلام يعنى صدارتها له ، واستهلاله بها ، واكتسائه ثوب معناها القائم على تنبيه المخاطب على ما تحدثه به من الأغراض والمعانى ، وعلى تحقيق الكلام المشتمل على تلك المعانى وتأكيده .

وبذا يتعدد مقصودها الدلالى فى السياق الذى ترد فيه ، إضافة إلى كونها من المقاطع الصوتية الممتدة التى تتساوق مع مقامات البوح والعتاب والشكوى ، وحالات الانفعال والغضب والتى تقتضى من المتكلم أن ينبه المخاطب إلى عميق معاناته وأساه ،

---

(١) ينظر : الشعر الجاهلى دراسة فى منازع الشعراء – د / محمد أبو موسى ص ٤٤٧ – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م .

(٢) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ص ١٨ – طبعة دار المعارف .

(٣) ينظر : الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ص ٣٨١ – تحقيق / فخر الدين قباوة – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

وينقل له مشاعره المفعمة بالحس الطاغى ، ومن ثم يكون حريصًا على استفتاح كلامه بـــ " ألا " ، وهذا ما سنقف عنده فى دراستنا هذه ، والتى تقوم على دراسة مقامات التعبير بـــ " ألا " الاستفتاحية فى شعر النابغة الذبيانى دراسة بلاغية .

وقالوا عن " ألا " هذه : إن معناها " حقًا " وجوز هذا القائل أن تفتح " أن " بعدها كما تفتح بعد " حقًا " ، وهذا فى غاية البعد كما ذكر المرادى [١] .

ولعل هذا المعنى مأخوذ من إفادتها معنى التحقيق مع التنبيه .

فقد ذكر صاحب " مغنى اللبيب " [٢] أن " ألا " تكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها ، وعاب على المعربين اقتصارهم على وصفها بأنها حرف استفتاح ، فيبينون مكانها وموضعها فى الكلام ، ويهملون معناها ، وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من همزة الاستفهام و " لا " النافية عند من يقول بتركيبها [٣] .

ومعلوم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفى أفادت التحقيق ، نحو قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ سورة القيامة الآية ٤٠ .

قال الإمام الزمخشرى [٤] : " ولكونها بهذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم نحو قوله تعالى ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ ﴾ يونس من الآية ٦٢، وأختها التى هى " أما " من مقدمات اليمين وطلائعها كقوله :

---

(١) ينظر : الجنى الدانى ص ٣٨١ .

(٢) ينظر : مغنى اللبيب لابن هشام ١ / ٦٥ – ط الحلبى .

(٣) كالإمام الزمخشرى . ينظر : الكشاف ١ / ١٨٠ ، – دار الفكر – بيروت – أما الإمام ابن مالك فإنه يقول بأنها بسيطة وليست مركبة ،. (ينظر : شرح الكافية الشافية لابن مالك ٣ / ١٦٥٥ – تحقيق د / عبد المنعم أحمد هريدى – دار المأمون للتراث) .

(٤) ينظر : الكشاف ١ / ١٨٠ ، ومغنى اللبيب ١ / ٦٥ .

أما والذي أبكـــى وأضـــحك والـــذي

أمات وأحيا والذي أمـــره الأمـــر [١]

الثانى : أن تكون عَرْضًا فتدخل على الجملة الفعلية لا غير ، كقولك : ألا تقوم ، ألا تقعد ، وإذا وليتها الأسماء فعلى تقدير الأفعال نحو قول الشاعر : " من الوافر " :

ألا رجـــلاً جـــزاه اللـــــه خـــيراً

يـــدل علـــى محصـــلةٍ تبيـــت [٢]

تقديره : " تعرفون " وشبهه " [٣] .

الثالث : أن تكون جوابًا وهو قليل .. يقول القائل : ألم تقم ؟ ألم تخرج ؟ فتقول : ألا ، وهو شاذ بمعنى بلى [٤] .

وزاد ابن هشام فى المغنى [٥] المعانى الآتية :

– التوبيخ والإنكار : نحو قول الشاعر " من البسيط " :

---

(١) من أبيات الحماسة وهو لأبى صخر الهذلى . (شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١ / ٣٧٧) .

(٢) نسب فى الخزانة ٣ / ٥١ إلى عمرو بن قعاس المرادى ، وهو فى الكتاب ٢ / ٣٠٨ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، وشرح المفصل لابن يعيش ٧ / ٥ – طبعة عالم الكتب ، والمحصِّلة : هى المرأة التى تميز الذهب من الفضة . (ينظر : لسان العرب لابن منظور – مادة " حصل " – دار الفكر ، دار صادر – الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٩ م .

(٣) ينظر : رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى ص ٧٩ – تحقيق / أحمد محمد الخراط – طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٤) ينظر : الجنى الدانى ص ٣٨٢ ، ورصف المبانى ص ٧٩ .

(٥) ينظر : مغنى اللبيب ١ / ٦٥ / ٦٦ .

ألا طِعَـــانٌ ألا فُرْســـانُ عادِيـــةٌ

إلاّ تَجَشُّـــوَكُمْ حَـــوْلَ التّنـــانير [١]

– والتمنى : نحو قول الشاعر : " من الطويل " :

ألا عمـــرٌ ولَّـــى مســـتطاع رجوعـــه

فيرأت ما أثـــارت يـــد الغفـــلات [٢]

ولهذا نصب " يرأت " لأنه جواب تمنٍّ مقرون بالفاء .

– والاستفهام عن النفى : كقول امرئ القيس : " من البسيط " :

ألاَ اصـــطبارٌ لليلـــى أمْ لـــــها جلَـــدٌ

إذاً أُلاقِـــي الـــذي لاقـــاه أمثـــالي [٣]

وهذه المعانى التى ذكرها ابن هشام ليست موضع اتفاق بين العلماء ، وبعضها يندرج تحت ما تقدم ذكره من المعانى .

---

(١) البيت لحسان وهو فى ديوانه ص ١٢٣ – طبعة دار المعارف – مصر . ونسب فى الخزانة ٤ / ٧٧ لخداش ابن زهير .

(٢) البيت بلا نسبة فى الخزانة ٤ / ٧٠ .

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٢٩ – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – الطبعة الخامسة .

المبحث الأول

بلاغة التعبير بـ " ألاَ " فى مقام الاعتذار والاستعطاف

إذا كان امرؤ القيس قد اشتهر بوصف النساء والتشبيب بهن ، وتصوير مناظر الصيد ، والإجادة فى وصف الطبيعة ، وإذا كان زهير قد برع فى الحكمة ، وتصوير المشاهد الحسية فى الفلاة ، وبرز فى وصف مناظر الصيد ، فإن النابغة أضاف إلى قيثارة الشعر الجاهلى وترًا جديدًا لم يعرف من قبله – فيما أعلم – وذلك هو فن الاعتذار ، وإن حلق فى كثير من الفنون الأخرى كالوصف ، والمديح ، والرثاء ، والهجاء ، والحكمة ، إلا أنه فى اعتذارياته نسيج وحده ، أتى فيها بما يدل على تفهم للنفس البشرية ، وقدرة عجيبة على ابتكار المعانى والتحايل فى أسر القلوب وسل سخائمها ، فطرق أبواب الاعتذار جميعها فى رقة وعذوبة وسلاسة ندر أن تتهيأ كلها لشاعر [(١)] .

يقول النابغة راجيًا مستعطفًا النعمان بن المنذر فى مقام الاعتذار"من البسيط" :

احكُمْ كحكم فتــاةِ الحّــي إذ نظــرَتْ

إلى حَمـــــام شِـــــراع واردِ الثَّمَـــــدِ

يُحُفّـــــهُ جانبـــــا نيـــــق، وتُتْبعُـــــهُ

مثل الزّجاجةِ لم تُكحَــلْ مــن الرَّمَــدِ

قالت : ألا لَيْتَمــا هــذا الحَمــامُ لنــا

إلى حَمامَتِنـــــا أونصــــــفُهُ فَقَــــــدِ

---

(١) ينظر : النابغة الذبيانى للدكتور / عمر الدسوقى ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ – دار الفكر العربى – الطبعة السادسة ١٩٧٤ / ١٩٧٥ م .

فحَسَّـــبوهُ فـــألفُوهُ كَمـــا حَسَـــبَتْ

تِســـعاً وتِســـعينَ لم تَـــنقُصْ ولم تَـــزدِ

فكَمّلَـــتْ مائَـــةً فيهـــا حَمامَتُهـــا

وأسْرَعَتْ حِسْبَةً في ذلـــكَ العَـــدَدِ [١]

هذه الأبيات من قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها تسعة وأربعين بيتًا ، وهى أطول قصيدة ذكرت فى الديوان .

وقد أنشدها النابغة فى مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه مما بلغه عنه فيما وشى به الواشون فى أمر " المتجردة " امرأة النعمان .

وقد ذهب فيها مذهبًا لطيفًا ، وعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه ، وهذا هو جوهر الاعتذار ، وطريقه التى ينبغى للشاعر أن يسلكها كما ذكر النقاد [٢] .

والنابغة فى هذه الأبيات يستعطف النعمان ويرجو أن يكون حكيمًا نافذ البصر فى حكمه ، كزرقاء اليمامة " فتاة الحى " التى رأت حمامًا مرَّ بين جبلين مسرعًا ، فقالت : ليت هذا الحمام لنا ونصفه إلى حمامتنا ، فيتم لنا مائة ، فنظر فإذا هى كما قالت ، وأرادت بالحمام : القطا ، وكان ستًا وستين ، يقال : إنها وقعت فى شبكة صائد ، فأخذها فعرف عددها [٣] . وكان يضرب بها المثل فى صدق البصر .

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ٢٤ – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – مصر – الطبعة الثالثة .

(٢) ينظر : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق القيروانى ٢ / ١٥٥ ، ١٥٦ – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الطلائع بالقاهرة ٢٠٠٦ م .

(٣) الديوان ص ٢٤ .

ولعل النابغة يقصد من ذكر قصة " فتاة الحى " مع الحمام فى سياق اعتذاره للنعمان أن يستميل قلب النعمان ويستهويه أن يسلك مسلكها فى الحكمة ودقة النظر ، التى جعلتها تضع الأمر فى موضعه ، ومن ثم فينبغى عليه ألا يأخذه بأقوال الوشاة حتى يتحقق من الأمر بحكمته ونفاذ بصره .

وهذا يعكس لنا رغبة النابغة الحثيثة فى تبرئة ساحته من تلك الوشاية والمقالة السيئة التى كانت قرعًا على كبده ، على حد قوله فى القصيدة نفسها :

ما قلتُ مـــن سّـــيء ممّـــا أُتيـــتَ بـــه

إذاً فـــلاَ رفَعَـــتْ سَـــوطى إليَّ يَـــدي

إلاّ مقَالَـــةَ أقـــوام شَـــقِيتُ بهـــا

كانَتْ مقَـــالَتُهُمْ قَرْعـــاً علـــى الكَبـــدِ

أى : ما قلت شيئًا مما أتوك به عنى ، لكنهم قالوا مقالة شقيتُ بها عندك ، واشتدت علىّ وهتكت من أجلها فكأنها قرعت كبدى بذلك [1] .

وهذا التعبير يكشف عن مشاعر الأسى والحزن ، وينبئ عن هم ووصب شديدين أصابا الشاعر ، يتجلى ذلك فى تكرار كلمة (مقالة) وإضافتها مرة إلى جمع التكسير (أقوام) ، وأخرى لضمير هذا الجمع ، فكأنهم تآلبوا عليه وعلى إشقائه عند النعمان الذى كان النابغة من المقربين لديه .

وتأمل كلمة (قرعًا) وما فيها من مرارة وألم نفسى عصيب قد هتك أحشاءه بسبب تلك الفرية .

---

(١) الديوان ص ٢٥ .

ومن ثم حرص النابغة على أن يأخذ بقلب النعمان ، ويمسح أعطافه ، وفى الوقت نفسه يعرى افتدار هؤلاء الأقوام عليه عند الملك ، وهذا مذهب لطيف ومقصد عجيب فى الاعتذار على حد قول ابن رشيق القيروانى [١] .

فقوله : " احكم كحكم فتاة الحى " استعطاف ورجاء يقصد منه استمالة قلب الملك ، واستجلاء الموقف وإظهار الحق بإعمال الحكمة وصواب الرأى ، كفتاة الحى التى يضرب بها المثل فى صواب البصر .

والفعل " احكم " أمر ، من حُكم اللازم ، يقال : حَكُم حُكْمًا : أى صار حكيمًا [٢] ، كما تقول ظَرُف فهو ظريف .

قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ مريم من الآية ١٢ .

والأمر هنا يقصد به الرجاء والاستعطاف والاستمالة ، والمعنى : كن حكيمًا فى أمرك مصيبًا فى الرأى ، ولا تقبل ممن سعى بى إليك ، كفتاة الحى إذ أصابت ووضعت الأمر فى موضعه [٣] ، وقد عبر عنها فى موضع آخر بـ " الحكومة " ، وهو قوله مخاطبًا عامر بن الطفيل " من الوافر " :

فكُنْ كأبيكَ أو كأبِي بَراء

توافِقْكَ الحُكومَةُ والصّوابُ [٤]

---

(١) ينظر : العمدة ٢ / ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) لسان العرب " حكُم " ، ولم يرد النابغة الحكم فى القضاء ، بل قصد أن يتحلى النعمان بالحكمة وصواب الرأى فى أمره .

(٣) الديوان ص ٢٣ .

(٤) الديوان ص ١٠٩ .

أى : كم كأبيك وعمك أبى براء متصفًا بالحكمة والصواب .

وأسلوب التشبيه فى قوله " كحكم فتاة الحى " يصور رجاء النابغة ورغبته المتطلعة إلى حكمة النعمان ونفاذ بصره .

فطرف التشبيه الأول " المشبه " غير متحقق عند القول ، ولكنه مرجو ومأمول عند الشاعر .

أما الطرف الثانى " المشبه به " فمتحقق فى الواقع ، ويحكيه الناس ويضربون به المثل فى الحكمة وصواب الرأى ، ومن ثم أخذ النابغة فى ذكر تفاصيله ، وبيانه وتصويره ، وكل ذلك مآله إلى المشبه الذى يرغب النابغة فى تحققه .

ومن مميزات وصف النابغة فى شعره توضيح المشبه به والاستطراد فى وصفه حتى يبرز بروزًا كاملاً لا يزيد عليه ، وذلك توضيح ضمنى للمشبه واستيفاء للمعنى ، ودلالة على شرود الخيال وسعته ، وهو فى هذا يجرى على طريقة العرب فى العناية بالتفاصيل والجزئيات والنفاذ إلى صميم المعنى ، وتقليبه على شتى وجوهه [(١)] .

ويتجلى ذلك فى مواضع كثيرة من الديوان ، من ذلك قوله يصف ناقته ويشبهها بثور وحشى فى القصيدة التى بين أيدينا :

كــأنّ رَحْلــي وقــد زالَ النّهــارُ بنــا

يومَ الجليــل علــى مُســتأنس وحِــدِ

من وَحــش وَجْــرَةَ مَوْشِــيّ أكارعُــهُ

طاوي المصير كسيفِ الصّــيقل الفَــرَدِ

---

(١) ينظر : النابغة الذبيانى – للدكتور / عمر الدسوقى ص ٢٢٢ .

سَــرتْ عليــه مــن الجــوزاء ســاريةٌ

تُزجي الشَّمالُ عليــهِ جامِــدَ البَــرَدِ

فارتاعَ مِنْ صوتِ كَلاّب فبــاتَ لـــه

طوعَ الشّوامتِ مِنْ خوفٍ ومِنْ صَــرَدِ

فبَــــثّهُنَّ عليــــهِ واســــتَمَرّ بــــهِ

صُمْعُ الكُعوب بريئاتٌ من الخَــرَدِ [١]

وقوله أيضًا فى تشبيه عطاء النعمان بالفرات حين يفيض :

فما الفُــراتُ إذا هَــبّ الرّيــاحُ لـــه

تَرمــي أواذيُّــهُ العِبْــرَين بالزّبَــدِ

يَمُــدّهُ كــلُّ وادٍ مُتْــرَع لجِــب

فيه ركــامٌ مــن الينبــوتِ والخَضَــدِ

يظَــلُّ مــن خوفــهِ المَــلاَّحُ مُعتصِــماً

بالخَيزُرانَــة بَعْــدَ الأيــن والنَّجَــدِ

يومــاً بــأجوَدَ منــه سَــيْبَ نافِلَــةٍ

ولا يَحُولُ عَطاءُ اليــوم دونَ غَــدِ [٢]

---

(١) الديوان ص ١٧ – ١٩ .

(٢) الديوان ص ٢٦ ، ٢٧ .

فهذا الاستطراد فى وصف المشبه به ، وتصويره تصويرًا دقيقًا تامًّا ، توضيح كامل للمشبه ، وهو من مميزات النابغة التى برع فيها [١] .

والتعبير بـــ " فتاة الحى " حث للنعمان أن يسلك مسلك تلك الفتاة التى هى من أواسط الناس وعامتهم ، فإذا كانت هى كذلك فى حدة البصر ، وحسن التقدير لما تقع عليه عينيها ، فحرى بالملك أن يكون حكيمًا فى أمره مصيبًا فى رأيه ، ولا يقبل ممن سعى إليه فى شأن النابغة .

وفى جملة " احكم كحكم فتاة الحى " إجمال وإبهام يحتاجان إلى تفصيل وبيان يجليان خبر تلك الفتاة فى حكمها وصواب رأيها ، وحدة بصرها .

والبيان بعد الإبهام أحد صور الإطناب فى الكلام ، والتى من شأنها أن تمكن الخبر فى نفس السامع أكمل تمكن ، لأنه جاءها بعد ترقب وتشوق كما يقول البلاغيون [٢] ، فالإجمال يشعر بالخبر ويحرك النفس فيقع التشوق له ، فإذا نيل بالتشوق والشوق كان ألذ ، بخلاف ما إذا نيل بلا شوق وطلب [٣] .

والنابغة هنا حريص على تحريك مشاعر النعمان وإثارة انتباهه ، ليستقر كلام النابغة فى قلبه ، فلا يأخذه بمقالة الوشاة .

فقوله :" إذا نظرت إلى حمام " تفصيل وبيان لخبر حكم تلك الفتاة ، وتجلية لموطن الحكمة ، ونفاذ البصر .

---

(١) ينظر : النابغة الذبيانى – للدكتور / محمد الدسوقى ص ٢٢٣ .

(٢) ينظر : شروح التلخيص ٣ / ٢١٠ ، ٢١١ – طبعة دار السرور – بيروت .

(٣) ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٣ / ٢١٠ ، ٢١١ – ضمن شروح التلخيص .

وفصله عما قبله من قبيل الاستئناف البيانى ، الذى يروى ظمأ النفس المتشوقة إلى معرفة تفاصيل الخبر الذى طوته الجملة الأولى ، وكأن النابغة رأى لسان حال المخاطب يتساءل عن حقيقة هذا الخبر الذى أجمله النابغة فى الجملة .

و " إذ " ظرف متعلق بـــ " فتاة الحى " وهى اسم للزمان الماضى والغالب فيها أن تكون ظرفًا [١] ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ سورة التوبة من الآية ٤٠ .

والفعل " نظرت " معناه : صوبت بصرها ودققت نظرها إلى هذا الحمام الكثير المتداخل بعضه فى بعض وهو يسير فى الجو قاصدًا هذا الماء القليل :

(إذ نظرَتْ إلى حَمامِ شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ) .

وحمام : جمع حمامة ، يقال للذكر والأنثى [٢] .

وتنكيره هنا لإفادة التكثير .

وقد استطاع النابغة هنا أن يرسم صورة بارعة لهذا السرب من الحمام ، واستخدم فيها ألفاظ الحقيقة ، فالتصوير كما يكون بالخيال يكون بالحقيقة ، ولا يقل أثر الحقيقة فى جمالها وروعتها وعمقها عن أثر الخيال بألوانه المتنوعة فى روعته وبراعته فى نقل الأحاسيس والمشاعر .

والنابغة هنا لم يغفل التصوير بالخيال بل نجده يشبه عين " فتاة الحى " التى نظرت إلى الحمام بالزجاجة فى الصفاء الذى لا يعتريه غبار أو رماد :

يُحُفّـــــهُ جانبـــــا نيـــــق، وتُتْبعُـــــهُ

مثل الزّجاجةِ لم تُكحَـــلْ مـــن الرَّمَـــدِ

---

(١) ينظر : مغنى اللبيب لابن هشام ١ / ٧٤ – طبعة الحلبى .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة " حمم " .

وبذا يكون قد قرن التصوير بالحقيقة بالتصوير بالخيال فى مشهد واحد ، مما ينبئ عن قدرة فائقة فى صياغة الصورة الشعرية .

وقد اعتمد النابغة فى تصويره لسرب الحمام هنا على أمرين مهمين فى التصوير بالحقيقة ، هما :

- دقة النظم ومراعاة أسرار الجمال فيه .
- والحقيقة الموحية بمعان تقويها ، وأضواء تحييها ، وظلال تنساب إليها فى تنوع وانسجام بين أجزائها .

والصورة الموحية من أقوى الصور فى التأثير ، وأدلّ على طبيعة الشعر الرامزة [١] .

ومن دلائل دقة النظم وأسرار جماله فى هذا المشهد المعبر عن وهج الشعور ، وعمق الإحساس بالأسى والحزن فى نفس النابغة ، اصطفاؤه للحروف والكلمات الموحية ، والتراكيب الكاشفة عن عمق إحساسه بمعانيه .

تأمل تكراره حرف الحلق " الحاء " أربع مرات [٢] فى قوله :

احكُمْ كحكم فتــاةِ الحّــي إذ نظــرَتْ

إلى حَمـــام شِـــراع واردِ الثَّمَـــدِ

وكأنه يستخرج به مشاعر الأسى التى تضمها جوانحه ويغص بها حلقه ، فيفرغها من خلال هذا الحرف .

---

(١) ينظر : البناء الفنى للصورة الأدبية – د / على صبح ص ٨٢ ، ٩٣ – المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) معلوم أن تكرار الحروف لا يعد عيبًا يخل بالفصاحة إلا إذا أوجب ثقلاً وبشاعة . (ينظر : المطول ص ٢٤) . وليس فى قول النابغة هنا شيء من ذلك .

وتكرار الألف المسبوقة بالفتحة فى قوله : (فتاة – حمام – شراع – وارد) يوحى برغبة الشاعر فى إفراغ حسراته ولواعج الأسى التى تكتوى بها جوانحه ، وكما ينبئ عن شغف نفسه وتطلعها إلى أن يقبل النعمان اعتذاره .

وقد جمع كل تلك المعانى حين حكى أمنية فتاة الحى وصدرها بحرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " ، وذلك فى قوله :

قالت : ألا لَيْتَمـــا هـــذا الحَمـــامُ لنـــا

إلى حَمامَتِنـــــا ونصـــــفُهُ فَقَـــــدِ

الفتاة تشوق نفسها إلى أن تضم هذا الحمام إلى حمامتها لتؤنس وحدتها ، وتكثر حمام بيتها ، وهذا ما دفعها إلى البوح بأمنيتها حين نظرت بعينها الصافية إلى سرب الحمام واستطاعت بحكمتها ورغبتها ونفاذ بصرها أن تعده رغم كثرته وشدة تدافعه وتداخله وهو يجرى بين حافتى الجبل .

والنابغة كذلك تتوق نفسه إلى أن يتحلى النعمان بالحكمة وإصابة الرأى فى أمره ، ولا يأخذه بمقالة الوشاة التى تنبئ عن مؤامرة حيكت ببراعة ضده ، بقصد إقصائه عن مجلس النعمان ، الذى طالما نعم فيه بالأنس والقرب من الملك .

ونستطيع بمزيد من التأمل أن ندرك قيمة التعبير بـــ " ألا " فى هذا الموقف المؤثر فى النفوس ، الآسر للقلوب ، فهى تمثل هنا قمة إحساس الشاعر ، وتنبئ عن حاجته الملحة إلى لفت من يسمع وإيقاظ انتباهه .

وهى من المقاطع الصوتية المفتوحة التى ترسل الصوت فى امتداد متسع [١] .

ومن المقاطع الصوتية المفتوحة التى عبر بها النابغة عن مشاعره المكبوتة فى هذه القصيدة أيضًا :

– أداة النداء " يا " فى قوله فى مطلع القصيدة :

يَـــا دَارمَيَّـــةَ بالْعلْيـــاء فَالسَـــنَدِ

قَوَتْ وَطـــالَ عَلَيْهـــا ســـالِفُ الأبَـــدِ

و " ها " التى هى أخت " ألا " فى التنبيه ، فى قوله فى آخر القصيدة :

ها إنَّ ذي عِـــذرَةٌ إلّـــا تَكُـــن نَفَعَـــت

فَـــإنَّ صـــاحِبَها مُشـــارِكُ النَكَـــدِ

وغنى عن البيان أن توزع هذه الكلمات ذات الطابع النفسى الحاد فى أدب الأديب وشعر الشاعر ، له دلالة على طبيعة حسية بمعانيه ومدى انفعاله بها [٢] .

والنابغة حين يستخدم هذه الكلمات فى تلك السياقات المليئة ذات الحس الطاغى ، والشعور المفعم بالحزن والأسى ، إنما يأخذ منها أداة لصيحة يطلقها فى وجه الوشاة ، يفرغ من خلالها لواعج الحسرة والأسى ، ويلفت بها انتباه من يسمع ويوقظه ، بل ويحثه على المشاركة الوجدانية والانفعال لتجربته ، وبذا يكون الشعر قاسمًا مشتركًا بين المبدع والمتلقى .

---

(١) ينظر : دلالات التراكيب – د / محمد أبو موسى ص ٢٦٢ – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر : دلالات التراكيب ص ٢٦٢ .

ومن براعة وصف النابغة لسرب الحمام تنكير كلمة " حمام " بقصد إفادة التكثير والتعظيم ، لدعم تعسر الإحاطة به لمجرد نظرة تصوب إليه " إذ نظرت إلى حمام " ، ولبيان شدة تعلق قلب الفتاة وانبهارها به .

وقد وصف النابغة سرب الحمام بثلاث صفات كاشفة لطبيعة هذه الصورة البارعة :

الصفة الأولى :

قوله " شراع " بالشين المعجمة ، جمع شارع ، أى قاصد شريعة الماء [١] .

وفى رواية " سِراع " بالسين المهملة المكسورة جمع " سريع " [٢] .

والمعنى : قاصدة إلى الماء [٣] ، أى متجهة إليه بسرعة لشدة حاجتها إلى أن تروى ظمأها .

وكان النابغة يصور حاجته إلى سرعة تبرئة ساحته عند النعمان كحاجة هذا الحمام المندفع بسرعة إلى الماء القليل .

الصفة الثانية :

قوله " وارد الثمد " ، أصله : واردٍ الثمد بالتنوين ، فحذف التنوين وأضاف .

والثمد : الماء القليل ، وكلمة " وارد " مفرد معناه الجمع ، وإنما عبر بالمفرد لإفادة توحد المقصد والغرض عند كل أفراد السرب .

وقد قالوا عن الثمد أيضًا : الماء القليل الذى يجف فى الصيف [٤] .

---

(١) ينظر : لسان العرب مادة " شرع " .

(٢) شرح ديوان النابغة – للطاهر بن عاشور ص ٨٤ – الدار التونسية .

(٣) الديوان ص ٢٤ .

(٤) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ٨٤ .

ولعل النابغة يقصد من اصطفاء هذه الكلمة إلى الإيماء عما وصلت إليه علاقته بالنعمان من الجفاء والجفاف .

الصفة الثالثة :

قوله " يحفه جانبا نيق " ، أى : يحيط به من جانبيه أو ناحيتيه ، والنيق : الجبل [١] .

وإذا كان الحمام بين حافتى الجبل ضاق عليه الموضع ، وركب بعضه بعضًا ، فكان أشد لعدوه وأبعد ، ولو كان فى سعة كان أهون عليها فى العدد وأيسر [٢] ، فهو أبلغ لها إذا أتت على عدده وهو هذه الحال [٣] .

يؤكد ذلك قوله فى آخر المشهد :

(وأسرعت حسبة فى ذلك العدد)

وهذا هو سر البراعة وموطن الحكمة ، لأنها حين دققت نظرها واتبعت عينها الصافية هذا السرب من الحمام أسرعت حسابًا فى عدده مع شدته وتعذره [٤] .

قوله : " وتتبعه مثل الزجاجة " معطوف بالواو على ما قبله لإفادة أنها أتبعته عينها الصافية صفاء الزجاجة وهو على هذه الحال ، مما يؤكد نفاذ بصرها وشدة ذكائها وبلوغ حكمتها .

---

(١) الديوان ص ٢٤ .

(٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات – لابن النحاس (المتوفى ٣٢٨ هـ) ٢ / ١٦٩ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٤) الديوان ص ٢٤ .

وتشبيهه عين الفتاة بالزجاجة فى الصفاء يكشف عن استعداد فطرى وجسدى لنجاحها فى عد الحمام بهذه السرعة ولا عجب فى ذلك فهى تسكن فى بيئة بدوية صافية .

ولعل فى هذا التعبير إيماء من النابغة إلى النعمان أن يصفى قلبه من الغضب ليذكو عقله وذهنه ، فيصيب الحكمة وصواب الرأى فى أمر الشاعر .

وتأمل حذف المشبه " عينها " ، إذ التقدير : وتتبعه عينًا مثل الزجاجة ، وما فيه من التعويل على ذكاء السامع والرغبة فى إثارة حسه وإشراكه ، حيث ذكر فى كلامه ما يدل عليه مثل قوله :" إذ نظرت إلى حمام" ، وقوله :" لم تكحل من الرمد " .

ومما هو معهود فى تراكيب اللغة ومركوز فى طبيعتها " أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره ، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال ، وأصل بلاغتها فى هذه الوجازة التى تعتمد على ذكاء القارئ والسامع ، وتعول على إثارة حسه وبعث خياله وتنشيط نفسه ، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ، ويفطن إلى معانى الألفاظ التى طواها التعبير [(١)] .

والنابغة فى أشد الحاجة إلى أن يثير تلك المعانى فى نفس مخاطبه " النعمان " حتى يتحقق رجاؤه .

لقد سلك النابغة مع النعمان كل مسلك من شأنه أن يبرأ ساحته عنده ، وهذا ما تلح به عليه نفسه العالية المترفعة عن كل خيانة ، والتى كان الناس يحسدونه عليها .

قوله " لم تكحل من الرمد " أى : لم يصبها رمد فتكحل [(٢)] ، وهذا تأكيد لمقصود التشبيه ، وتدعيم لرغبته فى إبراز صفاء عينها ، ونفاذ بصرها ، بنفى إصابة الرمد لها .

---

(١) خصائص التراكيب – د / محمد أبو موسى ص ١١١ – مكتبة وهبة – الطبعة الثالثة .

(٢) الديوان ص ٢٤ .

الرمد : وجع العين وانتفاخها ، والمعنى : لم تمرض بالرمد حتى تكحل بكحل دواء ، وهذا كناية عن نفى المرض ، كقول امرئ القيس [١] :

على لاحب لا يهتدى بمنارة

أى : على طريق لا منار فيه فيهتدى به [٢] .

فقد كنى امرؤ القيس عن نفى وجود المنار فى الطريق بنفى الاهتداء به ، كما كنى النابغة عن نفى المرض بالرمد بنفى الاكتحال بكحل دواء ، وهذا آكد لصفاء عينها المستفاد من التشبيه بالزجاجة .

وهذا لا يمنع أن تستخدم الكحل لزينة أو غيرها ، فالحكل المنفى هو كحل الدواء والتطبيب ، أما كحل الزينة فمشهور عن العرب .

فتسليط النفى على الفعل " لم تكحل " ليس على إطلاقه بل هو مقيد بالجار والمجرور بعده " من الرمد " ، ولا يفهم المقصود به إلا من خلاله ، وهذا ناطق بشدة الترابط بين أجزاء التركيب وقيوده .

وقد دخلت " ألا " هنا على أسلوب التمنى بـ " ليت " :

قالت : ألا لَيْتَمـا هـذا الحَمـامُ لنـا

إلى حَمامَتِنـا ونصـفُهُ فَقَـدِ

والتمنى أحد أساليب الإنشاء الطلبى التى تثرى التعبير الشعرى ، وتصور المشاعر المكنونة ، وتنقل الإحساس المفعم ، وتكشف ما يعتلج داخل النفس الشاعرة من رغبات مكبوتة ومحببة إلى النفس ، وإن كانت لا تطمع فى نيلها .

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٢٠ .

(٢) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ٨٥ .

وهذا يتساوق مع ما عبرت عنه " ألا " فى هذا المقام من البوح بالمشاعر ، وكشف الرغبات الدفينة فى أغوار النفس .

وأمنية الفتاة أن ينضم سرب الحمام ونصفه إلى حمامتها ، فيكتمل العدد مائة .

وقد روى أنها قالت :

لَيـــــــتَ الحمـــــــامَ ليـــــــهْ

إلى حمامتيـــــــــــــــــــــــهْ

ونصـــــــــــــفهُ قَديـــــــــــهْ

تمّ الحمـــــــــــامُ مِيَـــــــــهْ [١]

وقد ضمن النابغة شعره هذا القول ، وصاغه بأسلوبه الرائق المعبر عن مشاعره ومشاعر الفتاة بعبارة واحدة ، وهنا تكمن قيمة التضمين فى الشعر .

والتضمين فى لغة العرب يعنى : إيداع الشيء واحتواؤه وجعله فى ضمن آخر ، يقال : تضمن الوعاء ونحوه الشيء : احتواه واشتمل عليه ، والعبارةُ معنى : أفادته بطريق الإشارة أو الاستنباط [٢] .

وضمن الشيء الشيء ، إذا أودعه إياه [٣] .

وعند البلاغيين : أن يضمن الشعر شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء [٤] .

---

(١) الديوان ص ٢٤ .

(٢) المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١ / ٥٤٤ – إخراج د / إبراهيم أنيس وآخرين .

(٣) لسان العرب – مادة " ضمن " .

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٤ / ٥١٤ .

وضم كلام الغير بهذه الطريقة هو ما جعل التضمين يختص بالشعر عند كثير من العلماء [(١)] ؛ لأن ضم كلام الغير فى الشعر على وجه يوافق المضموم إليه مما يستبدع ، إذ ليس سهل التناول ، ولذلك عد فى المحسنات [(٢)] .

والشاعر حينما يضمن شعره شيئًا من شعر غيره ، إنما ينفخ فيه من روحه ، ويبعث بينهما توافقًا وانسجامًا يسهم فى تصوير مشاعره ونقل تجربته .

وفى كلام النابغة هنا صورًا موحية تستقى من صياغته الشعرية :

– فزيادة " ما " فى قوله " ألا ليتما " [(٣)] لتأكيد معنى التمنى وتقويته .

---

(١) خلافًا للإمامين : ابن أبى الإصبع المصرى ، والزركشى : فقد ذكر ابن أبى الإصبع أن التضمين هو " أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت ، أو من آية ، أو معنى مجردًا من كلام أو مثلاً سائرًا ، أو جملة مفيدة ، أو فقرة من حكمة " .

أما الإمام الزركشى فقد قال عن التضمين بعد عرضه للتضمين فى الأسماء والأفعال والحروف : " ويطلق التضمين أيضًا على إدراج كلام الغير أثناء الكلام لتأكيد المعنى ، أو لترتيب النظم ، ويسمى الإبداع " ، وهذا يعنى أن التضمين عندهما لا يختص بالشعر . (ينظر : تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى ص ١٤٠ – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣ / ٣٤٣ – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت .

(٢) ينظر : مواهب الفتاح ، وحاشية الدسوقى ٤ / ٥١٤ – ضمن شروح التلخيص .

(٣) قوله : " ألا ليتما هذا الحمام لنا " روى على وجهين بالنصب والرفع : النصب " الحمامَ " على وجهين : أحدهما : إعمال ليت لبقاء معناها ، والآخر : أن تكون " ما " زائدة مؤكدة ، وليت ملغاة .

وكان رؤبة ينشده مرفوعًا " الحمامُ " ورفعه من وجهين : أحدهما : أن تكون " ما " موصولة بمعنى الذى ، وما بعدها صلة ، والتقدير : ألا ليت الذى هو الحمام ، على حد : ما أنا بالذى قائل لك شيئًا ، والآخر : على إلغاء " ليت " وكفها عن العمل .

والإلغاء فى " ليتما " حسن ، والإعمال أحسن لقوة معنى الفعل فيها ، وعدم تغير معناها ، ألا ترى أن التمنى فيها لم يتغير ، كما يتغير فى " إنما " . (ينظر : شرح المفصل لابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) ٨ / ٥٨ – عالم الكتب) .

– والتعبير بضمير الجمع " نا " على لسان الفتاة : " ألا ليتما هذا الحمام لنا " يوحى باعتزازها بنفسها التى تنعم فى ظلال قومها ، وحمى عشيرتها وأهلها ، يدعم ذلك الإضافة فى قوله " فتاة الحى " فهى تدخل بين ربوع الحى ، وتستنشق عبير نسماته ، فتزداد أمنًا ودعة ، وتذكو نفسها ، ويصفو عقلها ، وهذا ما تمنته لحمامتها أن تركن إلى هذا السرب من القطا حين ينضم إليها فيؤنس وحدتها ، وتلك غاية أمنية الفتاة وكفاؤها ، ينطق بذلك قولها : " فقد " [(١)] أى : حسبى وكفانى هذا .

وبتأمل ما رواه العلماء عن قول الفتاة لا نجد كل تلك المعانى التى استقيناها من تعبير النابغة ، وهذا يعنى أن النابغة حكاه على لسانها بأسلوبه هو ، وصاغه شعرًا معبرًا عن نظرته فى الحياة ، بجانب تصويره لحدة بصرها وعمق شعورها ، فقد كان الرجل يتبوأ منـــزلة سامقة فى صفوف قومه ، ويهتم لأمرهم ، ويذود عن حياضهم ، فالحس الاجتماعى والقبلى الذى تميز به انعكس على صياغته لأشعاره ، وتلك نزعة ذاتية فى الشعر .

– والتعبير بصيغة الفعل المضارع فى قوله " وتتبعه " وعطفه على صورة جماعة الحمام السابقة يستحضر الموقف ويبرز هذا المشهد كأنه حاضر بين يدى المخاطب ، ويرى كل سامع وقارئ لهذا الشعر ، وبذا تظل الصورة نابضة بالحياة كاشفة للواقع .

والنابغة بارع فى تصوير الواقع ونقله كما هو بألفاظ حقيقية " فإن هذا النوع من الصور الذى لا يعتمد فى التوضيح والبيان بغير إبراز الحقيقة زاهية ناصعة لهو صنعة حقيقية تدل على مقدرة فذة على إبراز الصورة الشعرية فى أدق تفاصيلها " [(٢)] .

---

(١) قد : هنا اسم فعل بمعنى حسبى وكفانى . ينظر : لسان العرب – مادة " قدد " .

(٢) ينظر : تقديم الدكتور / حنا نصر الحتى لديوان النابغة ص ١٦ – دار الكتاب العربى – بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

وقد قالوا : إن هذا السرب وقع فى شبكة صائد فأخذ القطا وعرف عددها ، فإذا هى كما قالت [١] ، أو إنه حين نزل السرب على الماء عده الذين سمعوها فإذا هو كما قالت [٢] ، وقد صوَّر النابغة ذلك بقوله :

فَحَسَّـــبوهُ فَـــأَلفَوهُ كَمـــا حَسَـــبَت

تِسعاً وَتِســعينَ لَــم تَــنقُص وَلَــم تَــزدِ

فكَمّلَـــتْ مائَـــةً فيهـــا حَمامَتُهـــا

وأسْـــرَعَتْ حِسْـــبَةً في ذلـــكَ العَـــدَد

ونقف عند كلمة " فحسبوه " المعطوفة بالفاء على ما قبلها بقصد إفادة أنهم قاموا بهذا العمل عقب سماع قولها .

والتضعيف فى الفعل يحكى حركة تتبعهم لجماعة الحمام وتعاونهم فى حصر عدده ، الذى لقطته عين الفتاة عند مروره مجتمعًا مسرعًا بين حافتى الجبل ، كما يبرز ما قاموا به من ضم نصف الحمام إليه بعد عده فإذا هو تسع وتسعون كما حسبت [٣] ، دون نقص أو زيادة .

---

(١) ينظر : الديوان ص ٢٣ .

(٢) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ٨٤ .

(٣) ويروى " كما زعمت " بمعنى قالت ، زعم فلام كذا أو كذا ، أى قال . (شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص ١٦٩ – دار الكتب العلمية – بيروت) .

ورواية " كما حسبت " أقوى فى الدلالة على المقصود من إبراز حدة بصرها ، لأن الحساب معناه العد ، وهذا يعنى أنها أحصت عدد الحمام بمجرد نظرة إليه ، إضافة إلى التناغم الصوتى والانسجام المعنوى بين قوله "كما حسبت " وقوله " فحسبوه " قبله .

وتأمل هذا التناغم الصوتى واللفظى والانسجام المعنوى بين " حسبوه – حسبت " وقوله " تسعًا وتسعين " وكشفه عن مدى التوافق والتلاحم بين أفراد الحى ، وإبرازه للمعنى المقصود فى أبهى صورة من صور اللفظ .

والطباق فى قوله " لم تنقص – لم تزد " يؤكد هذا الانسجام والتوافق فى العد والحساب ، مما يدعم حدة بصر الفتاة ، وسرعة حسبتها ، وهذا ما نص عليه فى قوله :

(وأسرعت حسبة فى ذلك العدد)

أى أسرعت فى حساب القطا مع طيرانه وتراكبه ، فكان ذلك كحكم هذه ، إذ صدقت فى عدده على هذه الحال ، مما يشى بحكمة رأيها ، وحدة بصرها فى هذا الأمر .

وهذا ما دفع النابغة أن يستعطف النعمان ، ويبثه رجاءه أن يسلك هذا المسلك فى إصابة الرأى ، وإعمال الحكمة فى أمره .

وبذا يرتبط أول هذا المشهد بآخره فى إبراز مقصود الشاعر وكشف رغبته الجامحة فى تبرئة ساحته مما ينسب إليه .

كما يتبين لنا قيمة التعبير بحرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " فى هذا الموقف المؤثر فى النفوس الآسر للقلوب ، فهى تمثل هنا قمة إحساس الشاعر وتنبئ عن رغبته الأكيدة فى لفت انتباه السامع وإيقاظه ، ليدرك لواعج الأسى والحسرة التى عمد الشاعر إلى إفراغها من خلال هذا الحرف " ألا " .

المبحث الثانى

بلاغة التعبير بـ " ألاَ " فى مقام الهجاء

كان النعمان بن الحارث الغسانى قد احتمى [١] " ذا أُقُر " ، وهو واد مملوء نباتًا ومياهًا ، فاحتماه الناس ، وتربعته بنو ذبيان ، فنهاهم النابغة وحذرهم وخوفهم إغارة الملك ، ولكنهم لم يستمعوا إليه وتربعوه ، بل وعيروه خوفه النعمان وكان منقطعًا إليه ، فلما مات النعمان بن الحارث نعاه النابغة وكان منقطعًا إلى أخيه عمرو بن الحارث ، الذى وجه إليهم جيشًا فأصابوهم ، وسبوا نساءهم ، وفى ذلك يقول النابغة :

لَقَد نَهَيتُ بَني ذُبيانَ عَن أُقُر
وَعَن تَرَبُّعِهِم في كُلِّ أَصفار
وَقُلتُ : يا قَومُ إنَّ اللَيثَ مُنقَبِضٌ
عَلى بَراثِنِهِ لِوَثبَةِ الضاري

وقد ذكرهم النابغة فى هذه القصيدة [٢] تحذيره إياهم ، وعرض بسيّدى " فزارة بن ذبيان " ، كما وصف حال نسائهم فى السبى .

قال أبو عبيدة ، فلما بلغ بدر بن حذار قول النابغة فى هذه القصيدة :

يَنظُرنَ شَزراً إلى مَن جاءَ عَن عُرُض
بِأَوجُهٍ مُنكِراتِ الرقِّ أَحرار

---

(١) احتماه : أى أدخله فى حماه فلا يقربه أحد . لسان العرب " حمى " .

(٢) يبلغ عدد أبيات هذه القصيدة أربعة عشر بيتًا . (ديوان النابغة ص ٧٥ – ٧٧) .

وقوله :

يُذرينَ دَمعاً عَلــى الأَشــفار مُنحَــدِراً

يَأمُلنَ رحلَــةَ حِصــن وَابــن سَــيّار

غضب من ذلك فرد على النابغة بأبيات هجاه فيها وهجا قومه [١] .

فقال النابغة يرد على بدر بن حذار ، ويذكر حزيمًا وزبان ابنى سيّار بن عمرو ابن جابر ، وذلك أنه بلغه أنهما أعانا بدرًا ورويا شعره فى النابغة " من الوافر " :

أَلا مَــــن مُبلِــــغٌ عَنّــــي حُزَيمــــاً

وَزَبّــانِ الَّــذي لَــم يَــرعَ صِــهري

فَإيّــــاكُم وَعــــوراً دامِيــــاتٍ

كَــأَنَّ صِــلائَهُنَّ صِــلاءُ جَمــر

فَــإنّي قَــد أَتــاني مــا صَــنَعتُم

وَمــا رَشَّــحتُمُ مِــن شِــعر بَــدر

فَلَــم يَــكُ نَــولُكُم أَن تُشــقِذوني

وَدوني عــازبٌ وَبــلادُ حَجــر

فَــإنَّ جَوابَهــا فِي كُــلِّ يَــوم

أَلَــمَّ بــأَنفُس مِــنكُم وَوَفــر

---

(١) يبلغ عدد هذه الأبيات خمسة . (ينظر : ديوان النابغة ص ٧٩ ، ٨٠) .

وَمَـــن يَتَـــرَبَّص الحَـــدَثانِ تَـــزل

بمَـــولاهُ عَـــوانٌ غَـــيرُ بكـــر [١]

السياق كما نرى يكشف عن حزن عميق يعتصر له قلب النابغة ، وألم نفسى حاد يعانى منه بسبب عدم استجابة بنى ذبيان لتحذيره إياهم ، مما ألحق بهم الهزيمة وبنسائهم السبى والمهانة ، ثم تآلبهم عليه وتعاونهم على هجائه وهو الذى يذود عن حياضهم ، ويدفع عنهم كل أذى .

فالموقف مفعم بمشاعر الأسى والحزن ، ملئ بالحس الطاغى ، مما دفع الشاعر إلى الاستفتاح بـــ " ألا " لينبه السامع إلى عميق معاناته ، وكأن هذه الأداة صيحة أو صرخة أطلقها تعبيرًا عن حاله مع قومه :

أَلا مَـــن مُبلِـــغٌ عَنّـــي حُزَيمـــاً

وَزَبّـــانِ الَّـــذي لَـــم يَـــرعَ صِـــهري

وهذا ينبئ عن مدى انفعاله بمعانيه ، وحسن تخيره لأدواته البيانية المصورة لها أدق تصوير وأوضحه .

ومما يؤكد حسن إدراكه ووعيه فى تخير أدواته البيانية حسبما يقتضيه المقام ، أنه لم يستفتح بـــ " ألا " فى قوله " من السريع " :

مَـــن مُبلِـــغٌ عَمـــروَ بـــنَ هِنـــدٍ آيَـــةً

وَمِنَ النَصـــيحَةِ كَثـــرَةُ الإعـــذار [٢]

---

(١) ديوان النابغة ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الأبيات فى الديوان ص ١٦٨ .

وذلك لأن المقام مقام نصيحة، تسوده المشاعر الهادئة وتظلله الحكمة الرزينة .

والاستفهام : " من مبلغ عنى حزيمًا " ينبئ عن حسرة بالغة وغضب شديد مما بلغه عن " ابنى سيار " وروايتهما شعر بدر فى هجاء النابغة دون مراعاة منهما لآصرة القرابة والرحم ، ومن ثم أخذ يطلب من يحمل رسالة التهديد والوعيد منه إليهم ، ولعله يقصد من ذلك أيضًا التشهير بقبح فعلتهم وسوء صنيعهم حين هجوه وأشاعوا ذلك بين الناس ، متناسين الرحم والقرابة التى ظل هو مدافعًا عنها طيلة حياته .

ففى التعبير باسم الموصول وصلته فى قوله " الذى لم يرع صهرى " [(١)] زيادة توبيخ وتحقير من هذا الذى لم يرع حقًا لقرابة أو رحم .

والرحم والقرابة لهما فى نفس النابغة شأن عظيم ، ومن ثم ذمَّ من لم يحافظ عليهما ، ووبخه وحقره على ذلك .

وتعبير النابغة عن ذلك ينبئ عن لوعة حارقة ، وأسى بالغ على التخلى عن هذه القيمة الاجتماعية المتوارثة عند العرب ، وفى ذلك أيضًا إشارة إلى حرص النابغة على تحريض من يحمل عنه رسالته وحثه على تبليغها ، ومن هنا جاء التعبير بصيغة اسم الفاعل " مبلغ " .

وحذف المفعول الثانى لـــ " مبلغ " وهو " رسالة " لوشاية السياق به ، ولبيان أنها رسالة تهديد ووعيد ، فطيها بقصد زيادة التهويل والتفظيع الذى يتساوق مع السياق هنا ، وهذا ينبئ عن فراسة شديدة فى الإشارة والرمز ، وقد " كان النابغة من أفرس الناس فى إضمار إشاراته ودلالته ووحيه ورموزه " [(٢)] .

---

(١) الصهر الذى كان بين النابغة وزبان ، أن أم زبان بنت هاشم بن حرملة إحدى نساء بنى مرة ، والنابغة مرى أيضًا ، وكذلك أمها فاطمة بنت قيس ، وأم فاطمة تماضر بنت الشريد ، كلهن من بنى مرة . (ينظر : ديوان النابغة ص ٨٠) .

(٢) الشعر الجاهلى دراسة فى منازع الشعراء – د / محمد أبو موسى ص ٤٣٢ .

وقوله :

فَإيّـــــاكُم وَعـــــوراً دامِيـــــاتٍ

كَـــأَنَّ صِـــلائَهُنَّ صِـــلاءُ جَمـــر

شروع فى بيان ما طواه التعبير فى البيت الأول من التهديد والوعيد ، لتكتمل صورة المعنى بالعبارة بعد الإيماء والإشارة .

فهو يحمل تهديدًا ووعيدًا فى صورة تحذير شديد من قصائد هجو قباح تسوء من هُجى بها وتؤلمه أشد إيلام .

ومعلوم أن مدلول التحذير يختلف باختلاف حال المخاطب ، فالوالد حينما يخاطب ابنه بقوله : إياك وصديق السوء ، إنما يقصد النصيحة والتوجيه ، ولكن بعبارة فيها الحزم والأخذ على الأيدى .

وعلى هذا يحمل قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : " إياكم والجلوس على الطرقات " [(١)] .

أما حينما يكون الخطاب من الخصم إلى خصمه فإن مدلول التحذير يختلف ويسلك طريقًا آخر ليجرى فى محيط من التهديد والوعيد كما فى قول النابغة فى هذا السياق .

والتهديد بأسلوب الخطاب المباشر أوقع وأشد إيلامًا وهذا ما دفع النابغة إلى أن يلتفت إلى خطابهم بعد الحديث عنهم بطريق الغيبة فى البيت الأول [(٢)] ، وذلك لتقليب المعنى وإبرازه فى صورة متنوعة من التراكيب ، مما يشى بعمق إحساس الشاعر بمعانيه وتفاعله معها حتى يبرز فى أحسن صورة من اللفظ .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى ١ / ٢٥٢ – طبعة مصر ١٢٨٦ هـ .

(٢) معلوم أن الاسم الظاهر يقوم مقام ضمير الغيبة .

وقوله : " عورًا داميات " يعنى قصائد هجو قبيحة تسوء من وجهت إليه ، واصطلى بنارها .

وقد ركز النابغة هنا على إبراز صفات الشيء الكاشفة عنه ، المبينة له أتم بيان وأوفاه ، فحذف الموصوف : " قصائد " واستغنى بصفاته عنه فى إشارة إلى أن السياق يومئ إليه ويقتضى إبراز صفاته ، والتقدير : قصائد عورًا داميات ... إلخ .

الصفة الأولى :

قوله : " عورًا " جمع عوراء ، قال صاحب اللسان : والعوراء : الكلمة القبيحة أو الفعلة القبيحة ، وهو من العوَّار بمعنى : القذى فى العين أو الرمد ؛ لأن الكلمة أو الفعلة كأنها تعور العين فيمنعها ذلك من الطموح وحدة البصر ، ثم حولوها إلى الكلمة والفعلة على المثل ، وإنما يريدون فى الحقيقة صاحبها [(١)] .

فالنابغة هنا يقصد إلى تشبيه أثر قصائد هجوه فى كسر طموحهم وإضعافهم ، والنيل من عزيمتهم بأثر العوار – " وهو القذى فى العين أو الرمد " – على العين فى منعها من الطموح وحدة البصر ، وهو من الاستعارة التصريحية .

ومآل المعنى فى ذلك إلى تقبيحهم وتحقير شأنهم ، وإلى تصوير أثر هجائه على نفوسهم ، فهم المقصودون بالقبح والسوء وليس كلامه ، وإنما كلامه هو الذى يفل من عزيمتهم ويضعفهم ، كما يضعف القذى العين ، ومن ثم ساغ وصف كلامه بهذا الوصف .

وتأمل التنكير فى " عورًا " وما يفيده من التهويل والتفظيع مما يتناسب مع مقام الهجاء و التهديد .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة " عور " .

وكذلك اصطفاء الكلمات المعبرة والموحية بمزيد من التهويل " وعورًا – داميات – صلاء – جمر " مما ينبئ عن غضب شديد ، وحرفة وحسرة استقرت بين جوانحه ، ودفعته إلى أن ينفث بتلك الكلمات الموجعة ، والموغلة فى التهديد والوعيد .

الصفة الثانية :

قوله "داميات" أى : اللواتى يقطرن دمًا ، يقال : أسمع كلامًا يقطر دمًا ، أى : كلام سوء [(١)] شبهها بالجراح العميقة فيما يحصل بها من ألم لمن توجه إليه [(٢)] ، وحذف المشبه به ، ورمز له بلازمه وهو " داميات " على سبيل الاستعارة المكنية ، وهو يقصد بذلك أن يصور عمق أثرها على نفوسهم ، وشدة إيلامها لهم حين توجه إليهم فتنال منهم وتجرحهم جرحًا داميًا وغائرًا .

قال أبو عبيدة : فلما سمعها زبان بن سيار قال لقومه : احذروا عورًا داميات ، أى : الكلام القبيح [(٣)] .

وهذا يعنى أن تهديد النابغة قد نال منهم ، وأن وقع كلامه كان شديدًا على نفوسهم .

الصفة الثالثة :

قوله : " كأن صلاءهن صلاء جمر " أى : من اصطلى بهن واكتوى بحرهن كأنما اصطلى جمرًا [(٤)] .

---

(١) ينظر : ديوان النابغة ص ٨١ .

(٢) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٥ .

(٣) ينظر : ديوان النابغة ص ٨١ .

(٤) ينظر : ديوان النابغة ص ٨١ .

وهذا تشبيه بالغ يبرز شدة هذه القصائد على من هُجى بها ، ويصور مقدار الألم المادى والمعنوى الذى ينال من نفوسهم ، وتكتوى به جوانحهم حين يوجه إليهم قصائد هجوه لهم .

وبذا تتآذر أساليب التصوير الجزئى (الاستعارة بنوعيها – والتشبيه) فى سبيل اكتمال صورة المعنى المقصود ، وهو التهديد والوعيد بقصائد هجو قباح تسوؤهم وتخرس ألسنتهم .

وبعد التحقير والتهديد والوعيد فى البيتين السابقين يعود النابغة ليذكر الواقعة التى دفعته إلى هجائهم وتهديدهم ، وكأنه يشير بذلك يشير إلى أن تهديده ووعيده لهم كان لسبب قوى حركه ودفعه دفعًا إلى سلوك طريق التهديد والوعيد والهجاء ، الذى لم يسلكه النابغة كثيرًا فى شعره كما سلك فنون المدح ، والاعتذار ، والوصف مثلاً .

يقول النابغة مرتبًا ما سبق على ما بعد الفاء ، ومؤكدًا بـــ " إن " و " قد " :

فَـــإنّي قَـــد أَتـــاني مـــا صَـــنَعتُم

وَمـــا رَشَّـــحتُمُ مِـــن شِـــعر بَـــدر

فَلَـــم يَـــكُ نَـــولُكُم أَن تُشـــقِذوني

وَدوني عـــازبٌ وَبـــلادُ حَجـــر

ففى التأكيد هنا إيماء إلى أن ما صنعوه وقاموا به من نشر شعر بدر فيه ، وترشيحه وتزيينه بين الناس لم تكن نفسه تتوقعه منهم ، ولذا حينما أتاها الخبر امتلأت أسى وأسفًا وأنكرته ، ومن ثم أكد الشاعر الخبر مراعاة لحال نفسه ، وإشارة إلى أن الذى كان منهم لم يكن على وفق ظن نفسه فيهم ، فكأن نفسه تنكره ، فيؤكد كلامه

ليرد على نفسه ظنها الذى ظنت ، وليبين الخطأ الذى توهمت ، وهذا موقع لـــ " إن " فى الكلام كما ذكر الإمام عبد القاهر [١] .

والتعبير باسم الموصول وصلته فى قوله :

(ما صنعتم وما رشحتم من شعر بدر)

فيه تأكيد لسوء عملهم ، وحقارة فعلتهم حينما حرصوا على إشاعة شعر بدر فيه ، وحينما دأبوا على نشره بين الناس ، حتى وصل النابغة وهو فى هذه البلاد (بلاد حجر) .

فالتعبير كما نرى تفوح منه معانى اللوم والتوبيخ والتهكم ، ويكشف عن دقة اصطفاء النابغة للكلمات المتناغية المتساوقة فى تأكيد المعنى المقصود .

فقوله : " صنعتم " مأخوذ من صنعه بمعنى عمل على أحسن وجه ، وصنع الفرس يصنعه صنعًا وصنعة ، إذا قام عليه ، وتعهده بحسن القيام بعلفه وتسمينه [٢] .

وقوله : " رشحتم " أى : رويتم وحسنتم ، وأصل الترشيح : التزيين وحسن القيام على الشىء ، وقد روى " وشحتم " [٣] وهو من الوشاح الذى هو حلى النساء وزينتها [٤] . ووصل الجملة الثانية (وما رشحتم) بالجملة الأولى (ما صنعتم) لاتفاقهما فى الخبرية لفظًا ومعنى ، وتلك إحدى صور التوسط بين الكمالين .

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ٣٢٧ ، و ينظر : خصائص التراكيب – د / محمد أبو موسى ص ٦١ ، ٦٢ – مكتبة وهبة .

(٢) ينظر : لسان العرب " صنع " .

(٣) ينظر : ديوان النابغة – شرح وتعليق الدكتور / حنا نصر الحتى ص ١١٨ – دار الكتاب العربى – الطبعة الأولى ١٤١١ هـــ / ١٩٩١ م .

(٤) ينظر : لسان العرب – مادة " وشح " .

ففى التعبير تصوير لحسن قيامهم على شعر بدر فى النابغة ، وتعهدهم له بالرواية والتحسين والتزيين ، حتى شاع بين الناس مما جعل نفس الشاعر تزداد أسى وأسفًا .

وتأمل هذه الفاءات المتكررة فى أوائل الأبيات (فإنى قد أتانى – فلم يك نولكم – فإن جوابها) وقيمتها التعبيرية التى تكمن فى ربط معانى الكلام وتأكيده فى هذا السياق الملئ بالغضب والانفعال .

ومعلوم أن الفاء هى " ذلك الرباط الذى يربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وهى ذلك المعبر الذكى الذى ينـــزلق عليه القول ، من باب من أبواب المعانى إلى باب آخر " [(١)] .

كما أن التكرار وسيلة مشروعة فى لغة الانفعال والتوتر [(٢)] .

قوله : " فَلَم يَكُ نَولُكُم أَن تُشقِذونى " أى : لم يك ينبغى لكم أن تؤذونى بالهجاء [(٣)] ، وهذا عتاب شديد يرقى إلى درجة التوبيخ والتأنيب ، ينطق بذلك ألفاظه المنتقاة :

تأمل قوله : " نولكم " الواقع اسمًا لفعل الكون المنفى والمضاف إلى ضمير المخاطبين لتأكيد اللوم والتأنيب .

وقد قالوا : ما نولك أن تفعل كذا ، أى : ما ينبغى لك أن تناله ، فالنول من النَّوَال ، كما قالوا : ما كان نولك أن تفعل كذا ، أى : ما كان فعلك هذا حظًّا لك .

---

(١) قراءة فى الأدب القديم – د / محمد أبو موسى ص ٤٦ – دار الفكر العربى – الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر : السابق ص ١٣٩ .

(٣) ديوان النابغة ص ٨١ .

وفى الحديث : " ما نول امرئ مسلم أن يقول غير الصواب أن يقول ما لا يعلم " ، أى ما ينبغى له وما حظه [١] .

فاصطفاء النابغة لكلمة " النوْل " وإبرازها فى هذا التركيب مما يعمق غرضه فى تأنيبهم وتقريعهم ، وكأن يقصد إلى أن يقول لهم : لم يكن فعلكم هذا وإيذائى بالهجاء حظًا لكم ، وعملاً يصب فى مصلحتكم ؛ لأن جوابه ونتيجته ستحل عليكم وعلى أموالكم كالصاعقة ، وهذا ما صرح به فى البيت الذى بعده .

وقوله : " أَن تُشقِذونى " خبر لفعل الكون المنفى ، وهو جملة مؤولة بالمفرد ، أى : لم يك ينبغى لكم إيذائى وإشقاذى بالهجاء .

وأصل الإشقاذ : الطرد والإبعاد [٢] ، ولما كان العداء يستلزم الإبعاد والطرد قالوا : فلان يشاقذنى ، أى يعادينى .

وليس المقصود هنا الطرد والإبعاد حقيقة ، بل أراد الشاعر الطرد المجازى ، وهو المعاملة بما يفضى إلى العداوة من الإيذاء بالهجاء والسب ، ففى التعبير مجاز مرسل لعلاقة السببية ؛ إذ الإيذاء بالهجاء والسب يكون سببًا فى العداء والطرد .

وهذا يتناغم مع رواية " تقذعونى " أى : تشتمونى بالكلام القبيح ، فالقذع : الكلام القبيح ، يقال : قذعه إذا شتمه أو شافهه بكلام قبيح [٣] .

وإن كانت رواية " تشقذونى " أقرب رحمًا إلى التعبير عن مقصود الشاعر ، والكشف عن حزنه الشديد على إيذاء قومه له ، ومناصبته العداء ، وهم أهله وعشيرته !! .

---

(١) ينظر : لسان العرب – مادة " نول " ، والحديث فى كنــز العمال ١٦ / ٣٣٢ .

(٢) ينظر : لسان العرب – مادة " شقذ " .

(٣) لسان العرب " قذع " ، و ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٦ .

كما أن التعبير بصيغة المجاز فيه ثراء للمعانى ، وكشف لها من جميع جوانبها .

وجملة " ودونى عازب وبلا حجر " حالية ، تؤكد معنى التوبيخ والتأنيب ، وتعمق شدة حزنه على ما أصابه من قومه وهو فى هذا المكان ، وفيها إشارة إلى شيوع خبر إيذائهم له بالهجاء .

وبعد أن أكد خبر شدة إيذائهم له بالهجاء وأثر ذلك فى نفسه ، وبعد أن صور عميق أسفه وأساه على ذلك ، أخذ يصور شدة أثر ما صنعوه على أنفسهم وأموالهم وذويهم ، فقال عاطفًا بالفاء ومؤكدًا بـــ " إن " :

فـــــإن جوابهـــــا فى كـــــل يـــــوم

ألم بـــــــالنفس مـــــــنكم ووفـــــــر

والضمير فى " جوابها " يعود إلى أبيات " بدر بن حذار " التى هجا فيها النابغة وأهله ، وعبر عنها بالضمير لإفهام السياق إياها ، وللحط من شأنها وتحقيرها .

وتأكيد الخبر بـــ " إن " هنا يقصد منه تحقيق وعيده إياهم وترسيخه ليدركوا شدة اثر إيذائهم له .

ومقام الوعيد والتهديد من مقامات التوكيد ؛ لتزداد النفوس به خوفًا وفزعًا ، وتمتلئ القلوب رعبًا ،

وقوله : " فى كل يوم " تعبير عن الكثرة ، وتكرار ذلك مدة طويلة ، حتى يتناقله الركبان ، ويجرى على لسان كل إنسان ، يؤكد ذلك رواية " مع كل ركب " [١] .

---

(١) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٦ .

ورواية الديوان أبلغ فى الوعيد لإضافة كل إلى الزمان " يوم " الذى يعم الركب وغيره .

والتعبير بصيغة الماضى فى موضع الفعل المضارع فى قوله : " ألَمَّ بأنفس منكم ووفر " لتأكيد التهديد والوعيد ، وإبراز الجواب وكأنه قد حل بهم ونزل ، فهو يقصد إلى تأكيد تحقق وقوعه ، وتصوير ما سيقع كأنه قد وقع بالفعل ، وإنما يفعل الشاعر ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم أمرها [١] .

وهذا يتساوق مع سياق التهديد والوعيد ، ويكشف عن نفس غاضبة ، وقلب ممتلئ بالغيظ والغضب .

ومن ثم قصد النابغة إلى تهديدهم بأنه يغرى بهم من يغير عليهم فتذهب أموالهم وتذل أنفسهم .

وغنى عن البيان أن " العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذى اطلع على أسرارها ، وفتش عن دقائقها ولا تجد ذلك فى كل كلام ، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهمًا وأعمقها طريقًا [٢] .

ويختم النابغة هذه الصيحة وهذا التهديد بقوله :

وَمَـــن يَتَـــرَبَّص الحَـــدَثانِ تَـــزل

بِمَـــولاهُ عَـــوانٌ غَـــيرُ بكـــر

---

(١) ينظر : المثل السائر لابن الأثير ٢ / ١٨٩ – تحقيق / أحمد الحوفى ، وبدوى طبانه – طبعة نهضة مصر – الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

(٢) السابق نفسه ٢ / ١٨٤ .

التربص : انتظار حادث يحل بالغير [١] ، أى : من يتربص لغيره حوادث الدهر ويتمنى له الشر لم يأمن أن ينـــزل ذلك به وبعشيرته .

وقد نظم النابغة هذا البيت على أسلوب الشرط التهديدى لمن ينتظر حادثًا يحل بغيره ، ويتمنى له الشر ، وهو يشير بذلك إلى هؤلاء الذين آذوه بالهجاء ، ولكنه التفت إلى العموم عن طريق التعبير باسم الشرط " من " الداخل على الفعل المضارع " يتربص " ليخرج الكلام فى ثوب الحكمة ، تعميمًا للتهديد والتحذير ليشمل كل من يتمنى الشر لغيره .

وتأمل فعل الشرط " يتربص " الذى يصور بدقة فعل المتربص ، ويحكى حال هذا الحاقد الذى ينتظر مصيبة تحل بغيره ، ويستحضر صورة عمله المتجدد الذى يبرزه حريصًا على تمنى الشر لغيره .

أما جواب الشرط " تنـــزل " فإنه يبرز عاقبة فعل المتربص ، حيث تنـــزل به وبعشيرته داهية شديدة مثل الناقة العوان : " تنـــزل بمولاه عوان غير بكر " .

والمولى : هو ابن العم [٢] ، وقيل : هو الصاحب [٣] ، وإنما خص ابن العم لأنه إذا نزلت بابن عمه فقد نزلت به [٤] .

ومرجع الضمير فى قوله " بمولاه " هو الذى يحدد المقصود بالمولى هنا .

فإن عاد الضمير فيه على اسم الشرط " من " – وهذا هو الأظهر – صح أن يراد به ابن العم أو غيره من عشيرة الرجل والموالين له [٥] .

---

(١) ينظر : لسان العرب – مادة " ربص " .

(٢) ديوان النابغة ص ٨١ .

(٣) شرح ديوان النابغة ص ١٢٦ .

(٤) ديوان النابغة ص ٨١ .

(٥) السابق نفسه ص ٨١ .

وإن عاد الضمير إلى التربص الملائم من فعل " يتربص " كان المولى بمعنى الصاحب ، أى تنـــزل بصاحب التربص [١] .

والعوان من البقر وغيره : النَّصْفُ فى سنها التى بين الفارض وهى المسنة ، وبين البكر وهى الصغيرة .

وفى التنـــزيل يقول سبحانه : ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ البقرة من الآية ٦٨ .

قال الفراء : " انقطع الكلام عند قوله (ولا بكر) ثم استأنف فقال (عوان بين ذلك) " [٢] .

وهذا هو سن القوة والشدة والفتوة .

وقد أخذ النابغة هذا المعنى للعوان وأنزله على المصيبة والداهية الشديدة ، التى تحل بالمتربص وبعشيرته .

ففى التعبير بـــ " عوان " استعارة تصريحية حيث شبه الداهية أو المصيبة بالبقرة العوان بجامع الشدة .

وهو تعبير مأخوذ من البيئة المحيطة بالشاعر لإبراز مقصوده ، وتصوير المعنى المراد .

وقوله : " غير بكر " تأكيد لفظى [٣] يدعم المعنى المراد ويجليه ، ويبرز حرص الشاعر على إظهار معانيه وتصوير مشاعره الغاضبة أدق تصوير وأوفاه فى تأدية المعنى المراد .

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ١٢٦ .

(٢) معانى القرآن للفراء ١ / ٧٥ – تحقيق / محمد على النجار – دار السرور – بيروت ، و ينظر : لسان العرب مادة " عون " .

(٣) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٦ .

وبذا يتبين لنا براعة النابغة فى حسن تخيره لأدواته البيانية المصورة لمشاعره فى هذا الموقف المفعم بمشاعر الأسى والحزن ، المليء بالحس الطاغى ، مما دفعه إلى التنبيه عن عميق معاناته ، والكشف عن مشاعره الغاضبة فى هذه الأبيات التى صدرها بحرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " ، والتى جاءت ملبية لرغبات الشاعر ، وكاشفة عن مكنون مشاعره .

ومن مواطن الهجاء والغضب التى ابتدأ النابغة فيها بـــ " ألا " قوله فى هجاء لبيد بن ربيعة " [(١)] من الوافر" :

ألا مـــــن مبلـــــغ عـــــنى لبيـــــدًا

أبـــا الـــدرداء جحفلـــة الأتـــان

فقـــــد أزجـــــى مَطيَّتَـــــهُ إلينـــــا

بمنطـــق جاهـــل خَطِـــل اللســـان

وقد قال النابغة هذين البيتين للرد على " لبيد " حين هجا " الربيع بين زياد العبسى " [(٢)] وقومه أبناء عم بنى ذبيان ، فانبرى النابغة للرد عليه .

وابتداء البيتين بـــ " ألا " الاستفتاحية ، ينبئ عن صيحة ثائرة أطلقها النابغة فى وجه لبيد ، ذودًا عن حياض قومه بسيف البيان ، وطلاقة اللسان ، فالسياق كما

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر .. أحد الشعراء المخضرمين ، عدَّه ابن سلام فى الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدى ، وأبى ذؤيب الهذلى ، والشماخ ، ثم قال : " وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل فارسًا شجاعًا وكان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلمًا رجل صدق " . (ينظر : طبقات فحول الشعراء ص ٢٩ ، ٣١) .

(٢) الربيع بن زياد العبسى كان سيدًا فى قومه " عبس " وشهد حرب داحس والغبراء ، وكان يكنى أبا حريث . (ينظر : ديوان النابغة ص ١١١) .

نرى سياق انفعال وغضب وذب وذود عن حياض أبناء عمومته " بنى عبس " ، وزعيمهم الربيع بن زياد العبسى الذى هجاه لبيد وغيره من بنى عامر [١] .

ومن ثم جاء التعبير بـــ " ألا " التى يمكن أن نطلق عليها فى شعر النابغة " ألا " الانفعالية الغاضبة ، والثائرة على كل ما يخالف التقاليد العربية الأصيلة .

والاستفهام فى قوله " من مبلغ عنى " ينبئ عن غضب شديد ، ويكشف عن رسالة تهكم وتحقير قصد النابغة أن تصل إلى لبيد بن ربيعة العامرى .

ولعل الأوصاف التى أنزلها على " لبيد " وناقته يصور ذلك بوضوح ، حيث وصف ناقته بتآكل أسنانها ولصوقها بأصول الثنايا مع تدلى الشفة فى قوله : " أبا الدرداء ، حجفلة الأتان " ، وهذا كناية عن الضعف والكبر .

والدرداء : من الدّرد وهو ذهاب الأسنان .

والدرداء من الإبل : التى لحقت أسنانها بدردرها من الكبر [٢] .

---

(١) من ذلك قول يزيد بن عمرو بن الصعق بعدما أغار على الربيع وقومه ، فاستاق غنمًا لهم ، ونجائب من فتايا النوق كانت للنعمان بن المنذر ترعى بذى أبان :

أَلا أَبلِغ لَدَيكَ أَبا حُرَيثٍ وَعاقِبَةُ المَلامَةِ لِلمُليمِ
فَكَيفَ تَرى مُعاقَبَتي وَسَعيي بِأَذوادِ القَصيمَةِ وَالقَصيمِ
فَنِمتُ اللَيلَ إِذ أَوقَعتُ فيكُم قَبائِلِ عامِرٍ وَبَني تَميمِ
وَساغَ لي الشَرابُ وَكُنتُ قَبلاً أَكادُ أَغُصُّ بِالماءِ الحَميمِ

وأبو حريث : كنية الربيع بن زياد العبسى ، وقد ذكر هذه الأبيات البطليوسى فى شرحه . (ينظر : ديوان النابغة ص ١١١) .

وقد جاءت هذه الأبيات فى ديوان النابغة أيضًا ص ٢١١ منسوبة إلى النابغة ، غير أن التصريح بكنية الربيع بن زياد " أبا حريث " ، والمعانى التى ذكرت فيها تبعد نسبتها إلى النابغة ، ولذلك لم أوردها فى نماذج التحليل .

(٢) ينظر : لسان العرب لابن منظور – مادة " درد " .

والحجفلة : شفة الخيل والبغال وغيرها ، ولعله قيدها بالأتان " أنثى الحمير " للتحقير [١] والتهكم .

والمقصود من التعبير الكنائى هنا وصفها بالضعف والكبر تحقيرًا لها ولصاحبها .

وتأمل فاء الربط التى ترتب ما بعدها على ما قبلها لتكشف عن سر غضبة النابغة عليه ، يقول :

فقد أزجى مطيته إلينا

بمنطق جاهل خطل اللسان

ومعنى : أزجى مطيته إلينا : ساقها .

والمراد بالمطية هنا : القصيدة ، أى : أرسل قصيدته إلينا .

ففى التعبير استعارة تصريحية ، حيث شبه القصيدة المرسلة بالناقة المساقة ، بقصد التهكم والسخرية من شأن لبيد وقصيدته .

وقد أكد هذا المعنى بقوله : " بمنطق جاهل خطل اللسان " .

وهو متعلق بالفعل " أزجى " أى : أرسل قصيدته إلينا ، وهى متلبسة بجهالة المنطق ، واضطراب اللسان ، حاملة ضعف قائلها واهتزازه .

وهذا قدح فى القول ، ورمى للقائل بالطيش والجهالة ، واهتزاز الشخصية .

ولعلنا نلحظ اهتمام النابغة فى هجائه بسلب الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، وهذا أجود ما فى الهجاء كما ذكر صاحب كتاب العمدة [٢] .

---

(١) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ٢٥٩ .

(٢) ينظر : كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى ٢ / ١٥٢ .

ومما يؤكد هذا المسلك عند النابغة قوله فى عامر بن الطفيل بعد وقعة (حسى) وهو يوم كان لبنى ذبيان على " عامر بن الطفيل " وقومه ، وقد قتل فيه أخو عامر حنظلة بن الطفيل ، فقد روى أن النابغة قال لقومه حينما أرادوا هجاء عامر بن الطفيل : إن عامرًا له نجدة وشعر ، ولسنا بقادرين على الانتصار منه ، ولكن دعونى أجبه وأصغر إليه نفسه ، وأفضل عليه أباه وأمه ، فإنه يرى أنه أفضل منهما ، وأعيره بالجهل ، فقال :

فَــإن يَــكُ عــامِرٌ قَــد قــالَ جَهــلاً

فَــــإنَّ مَظِنَّـــــةَ الجَهـــــل الشَـــــبابُ

فَكُـــــن كَأَبيـــــكَ أَو كَـــــأَبي بَـــــراء

تُوافِقُـــكَ الحُكومَـــةُ وَالصَـــوابُ [١]

فلما بلغ عامرًا ما قال النابغة شق عليه وقال : ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة ، جعلنى القوم رئيسًا وجعلنى النابغة سفيهًا جاهلاً ، وهكم بى [٢] .

وقد عد النقاد هذا اللون من الهجاء بأنه من أشد الهجاء وأمضه ، وقال خلف الأحمر : أشد الهجاء أعفه وأصدقه [٣] .

المبحث الثالث

(١) الأبيات فى ديوان النابغة ص ١٠٩ .

(٢) ينظر : كتاب العمدة ٢ / ١٥٠ .

(٣) ينظر : السابق نفسه ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

بلاغة التعبير بـ " ألا " فى مقام العتاب والشكوى

كان النابغة يتمتع بمكانة ممتازة لدى ملوك الحيرة وملوك الغساسنة ، وقد كان لهذه المكانة أثرها الطيب على قومه ، حيث كان يقضى حوائجهم ، ويفك أسراهم ، ويعين المحتاج منهم ، ويحفظ لهم أحلافهم الذين تقوى بهم شوكتهم ، ويكونون لهم عونًا ونصرًا على أعدائهم .

تأمل قوله " من الطويل " :

وقائلـــة مـــن أمَّهـــا واهتـــدى لهـــا

زيادُ بن عمـــرو أمَّهـــا واهتـــدى لهـــا

تروى بصحن مـــن شـــراف إلى المـــلا

علـــى نفســـه إذ لا يبـــالى كَلاَلَهـــا

ألا من يـــرى قـــومى كـــأن ســـراتهم

خضـــيد أتاهـــا عاضـــدٌ فأمالهـــا

أدفّـــن قـــتلاهم وآســـو كلـــومهم

وأحذر أن ألقـــى لـــديهم مثالهـــا [١]

تجد أن النابغة فى هذه الأبيات يصور مشهدًا مؤثرًا ، حين تنتهى المعركة ويسقط كبار قومه فى المعركة ، فيحمى النابغة النساء من ذل الأسر ، ويدفن قتلى قومه ويأسوا كلومهم .

---

(١) ديوان النابغة ص ٢٠٥ .

فقوله : " وقائلة من أمها واهتدى لها " يصور حال هذه المرأة التى قصدها النابغة واهتدى لها فأنقذها من الأسر والذل ، وهى تلهج وتقول : من هذا الذى أمها واهتدى لها فأنقذها ؟

فهذا التساؤل والاستفهام يقصد به التعظيم والتعجيب من هذا الذى أنقذها ! .

فيجيب النابغة معتزًّا بنفسه قائلاً : " زياد بن عمرو أمها واهتدى لها " .

وتكرار عبارة " أمها واهتدى لها " يؤكد اعتزازه بنفسه وثقته بها ، وافتخاره بعمله الذى لا يصدر إلا من فارس نبيل .

ثم يصف نفسه بالإيثار والتفانى فى خدمة قومه ، فيقول :

تروَّى بصحن مـــن شَـــرَاف إلى المـــلا

علـــى نفســـه إذ لا يبـــالى كلالهـــا

شَرَاف : ماء لبنى أسد ، وتروّى : من الرى .

يعنى أنه تروّى بصحن ماء بنى أسد ليروى قومه ويؤثرهم على نفسه ، إذ هو لا يبالى تعبها وكلالها فى خدمة قومه .

فقوله : " إذ لا يبالى كلالها " تعليل للكلام السابق ، وتصوير لشدة إيثاره لقومه على نفسه .

والمقصود من ذلك تأكيد كلامه السابق ، وتدعيم اعتزازه بنفسه .

ويخلص النابغة من ذلك إلى وصف المشهد الذى تمخضت عنه المعركة ، وإبراز موقفه منه فيقول :

ألا من يـــرى قـــومى كـــأن ســـراتهم

خضـــــيد أتاهـــــا عاضـــــد فأمالهـــــا

أدفّـــــن قـــــتلاهم وآســـــو كلـــــومهم

وأحـــــذر أن ألقـــــى لـــــديهم مثالهـــــا

إنه مشهد يؤثر بشدة فى النفس الحرة الأبية ، ويملؤها ألمًا وحزنًا ، ولذلك ابتدأه النابغة بـــ " ألا " لينفث من خلالها آلامه ، ويبوح بأحزانه ، ويفرغ مأساته البالغة فى قومه .

إنه يلفت انتباه كل من له عين ترى ، وقلب يحس ويستشعر ويأسى لرؤيته هذا المشهد المؤلم ... فكبار قومه وإشرافهم يبدون وكأنهم " خضيد أتاها عاضد فأمالها " .

شبههم بالشجر الذى قطع شوكه فصار رخوًا [(١)] ضعيفًا ، لدرجة أنه إذا مرَّ بجانبه عاضد (وهو الذى يمشى إلى جانب الإبل فى سيرها) [(٢)] أمالها لضعفها ورخاوتها ، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس .

وعبر بأداة التشبيه "كأن " بقصد الإبلاغ فى وصفهم بالضعف وخور العزيمة ، مما ألحق بهم الهزيمة ، فسقط منهم القتلى ، والجرحى ووقع النساء فى الأسر والهوان .

وهذا ما جعل قلب النابغة يعتصر حزنًا وكمدًا :

---

(١) خضدت الشجر : قطعت شوكه فهو خضيد ومخضود . (لسان العرب ، مادة " خضد " .

(٢) ينظر : معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس – تحقيق / عبد السلام هارون – مادة " عضد " ٤ / ٣٥٠ – دار الجيل – بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

أدفّـــن قـــتلاهم وآســـو كلـــومهم

وأحـــذر أن ألقـــى لـــديهم مثالهـــا

تأمل هذا التصوير الدقيق الذى يبرز حرصه على إزالة آثار الهزيمة ، ويكشف عن رغبته الشديدة فى حفظ هيبة قومه ، وقضاء حوائجهم ، وفك أسراهم ، وتدبر تتابع الجمل الثلاث المكونة لهذا البيت ، وتصديرها بصيغة الفعل المضارع " أدفن قتلاهم ، وآسو كلومهم ، وأحذر أن ألقى لديهم مثالها " الذى يستحضر المشهد ويحكيه كأنه حاضر أمام كل سامع ، ويكشف عن حزن عميق يملأ على الشاعر جوانحه ، ويسيطر على أحاسيسه ومشاعره ، يؤكد ذلك اصطفاء الكلمات المعبرة عن الموقف ، وتضعيف الفعل فى قوله " أدفّن " الذى يحكى عمله الدءوب على حفظ كرامة القتلى بمواراة التراب عليهم ودفنهم ، وهذا هو الأهم ولذلك قدمه .

وبالرغم من ذلك وغير فإن قوم النابغة لم يحفظوا له هذه الأيادى ، ولم يحسنوا الرد عليها .

فهذا يزيد بن سنان المرّى يطلق ابنه النابغة ، ويجمع عليه الجموع يعادونه ، ويعادون رهطه وعشيرته ، بل إنهم قد تناصروا عليهم حتى نفوهم إلى " عذرة " .

وهنا يطلق النابغة هذه الزفرة الحارة معاتبًا بنى مرة على استئثارهم وتحالفهم عليه وعلى قومه " بنى يربوع " ، وقد كان النابغة يحسد كثيرًا ، كما كان رجلاً عفيفًا شريفًا [(١)] ، يقول " من الطويل " :

أَلا أَبلِغـــا ذُبيـــانَ عَنّـــي رســـالَةٍ

فَقَد أَصبَحَت عَن مَنهَجِ الحَـــقِّ جـــائِرَه

(١) ينظر : ديوان النابغة ص ١٥٣ .

أَجــدَّكُمُ لَــن تَزجُــروا عَــن ظُلامَــةٍ

سَفيهاً وَلَن تَرعوا لِذي الــوُدِّ آصِــرَه

فَلَــو شَــهدَت سَــهمٌ وَأَفنــاءُ مالِــكٍ

فَتُعــذِرُني مِــن مُــرَّةَ المُتَناصِــرَه

لَجاؤوا بجَمع لَــم يَــرَ النــاسُ مِثلَــه

تَضــاءَلُ مِنــهُ بالعَشِــيِّ قَصــائِرَه

لَيَهنَــأ لَكُــم أَن قَــد نَفَيــتُم بُيوتَنــا

مُنَــدّى عُبَيــدانَ المُحَلِّــئ بــاقِرَه [1]

وقد صدر النابغة زفرة العتاب هذه بـ " ألا " الاستفتاحية ، لتكون أداة لصيحة غضب ، وصرخة عتاب يطلقها فى وجه قومه الذين تنكروا لأياديه ، وناصبوه العداء ، وليلفت أذهان من يسمع مأساته مع قومه ، وينبهه إلى ما يقصد إليه من البوح بمشاعر الأسى والحزن ، وهذا يعكس لنا مقدار انفعاله بمعانيه ، وحسن اصطفائه لأدواته البيانية المعبرة عن معانيه ، المصورة لمشاعره وأحاسيسه أدق تصوير وأوفاه .

والنابغة هنا يطلب من رفيقيه – على عادة الشعر فى بث مشاعرهم وتصوير عواطفهم – أن يبلغا قومه رسالة لوم وعتاب شديدين : " ألا بلغا ذبيان عنى رسالة " .

فصيغة فعل الأمر فى قوله " أبلغا " يقصد منها الالتماس وأيضًا التشهير بموقف قومه الحائد عن الحق المجافى للحقيقة ، العارى من أى وفاء ، المشتمل على كل غدر وجفاء ، وهذا هو المقصود الأصيل فى هذا التعبير ، أما توجيه الخطاب فإنه يعكس رغبته فى المشاركة الوجدانية من المخاطبين .

---

(١) ديوان النابغة ص ١٥٣ .

تأمل قوله يبكى على " بنى عبس " حين فارقوا " بنى ذبيان " [١] وانطلقوا إلى بنى عامر [٢] :

أَبلِــغ بَــني ذُبيــانَ أَن لا أَخــا لَهُــم

بعَبس إذا حَلّوا الــدِماخَ فَأَظلَمــا [٣]

بجَمع كَلَــونِ الأَعبَــل الجَــونِ لَونَــهُ

تَــرى في نَواحيــهِ زُهَــيراً وَحِــذيَما

هُــمُ يَــردونَ المَــوتَ عِنــدَ لِقائِــهِ

إذا كانَ وردُ المَــوتِ لا بُــدَّ أَكرَمــا

النابغة هنا يتحسر على فراق " بنى عبس " ويحاول أن يجعل قومه يشاركونه الحسرة والألم ، بوصفه جموع عبس وتشبيههم فى كثرة السلاح الصافية البيض بالأعبل ، وهو الجبل الأبيض الحجارة " يجمع كلون الأعبل الجون لونه " ، والجون هنا الأبيض ، وهو أيضًا الأسود [٤] .

كما وصفهم بالصبر فى القتال ، والجرأة والإقدام فى البيت الثالث ، ولذلك فهم حينما ينضمون لبنى عامر تكون ذبيان قد فقدت إخوتهم .

---

(١) ذبيان وعبس : أحوان كان بينهما حرب وتباين ، وكانت ذبيان حلفاء بنى أسد ، وعبس بنى عامر . (ينظر : ديوان النابغة ص ١٠٤) .

(٢) ينظر : ديوان النابغة ص ١٠٤ .

(٣) الدماخ : أجْبُل عظام ضخام ، واحدها دمخ ، وأظلم : موضع ، أو جبل فى بنى سليم . (ينظر : الديوان ص ١٠٤) .

(٤) لسان العرب ، مادة " جون " ، و ينظر : ديوان النابغة ص ١٠٤ .

هو إذًا يحاول أن يحمل قومه على مشاركته الحسرة والألم ، بتذكيرهم شجاعة عبس ويسالتهم وصبرهم فى الحروب ؛ لذا خلا صدر رسالته هنا من ذكر " ألا " الاستفتاحية ، حيث إن المقام ليس مقام لوم وعتاب وغضب على قومه ، بل هو شعور بالحسرة والألم والحزن يدعو قومه إلى أن يشاركونه هذا الشعور الحزين على مفارقة أبناء العمومة .

وبذا يتأكد لنا أن النابغة كان دقيقًا فى تخير أدواته البيانية المعبرة فى كل موقف يواجهه .

وتنكير " رسالة " يقصد منه التوبيخ والتأنيب لهم على فعلتهم الحائدة عن الحق ، فهى رسالة تحمل معانى الشكوى والعتاب واللوم ، والتقريع والتوبيخ أيضًا .

وفى تقديم الجار والمجرور " عنى " على المفعول الثانى " رسالة " إشارة إلى معنى نفسى دقيق ، هو أن النابغة يقصد إلى أن يعبر عن نفسه هو ، المفعمة بالأسى والحزن ، وأن يصور مشاعره الخاصة تجاه قومه وعشيرته " ذبيان " الذين طالما أعانهم وسعى فى قضاء حوائجهم ، واهتم لأمرهم ، فغرض الكلام وسياقه يقتضيان هذا التقديم المعبر عن اهتمام النابغة وعنايته لتصوير مشاعره .

وقوله : " فقد أصبحت عن منهج الحق جائرة " بيان للسبب الذى دفعه إلى توجيه رسالة اللوم والعتاب والتأنيب إليهم ، فهو تعليل وتوضيح للدافع الذى حرك مشاعره ، وألهب عواطفه ، لذا صدره بالفاء .

ودخول " قد " على الفعل الماضى " أصبحت " تأكيد لانحرافهم عن الحق والصواب ، وسلوك طريق الجور والظلم .

وقد كان النابغة منصفًا فى اصطفائه التعبير بفعل " أصبحت " ، لأنه يعنى أن هذا الانحراف أمر طارئ على حياتهم ، وليس من أخلاقهم ، وهنا يكمن السر فى حزن النابغة وحسرته وألمه .

والتعبير بقوله " عن منهج الحق " يكشف عن طبيعة شخصية النابغة المتمسكة بقيم الحق والعدل ، المدافعة عنها فى مجتمع ساده الظلم والجور والطغيان ، ولذلك قدمه على خبر " أصبحت " ، لبيان شدة اعتلاق هذا المنهج بنفسه التى تسعى جاهدة فى سبيل نصرته وظهوره فالتقديم فيه للعناية والاهتمام بمنهج الحق .

وقوله :

أَجــدَّكُمُ لَــن تَزجُــروا عَــن ظُلامَــةٍ

سَفيهاً وَلَن تَرعوا لِذي الــوُدِّ آصِــرَه

تفصيل لبعض أفعالهم الحائدة عن منهج الحق ، فهو بيان وتأكيد لما قبله ، لذلك فصل عنه ، لما بينهما من كمال الاتصال .

فالنابغة يصور فيه حالهم حينما لا يزجرون سفيهًا عن ظلم اقترفه ، ولا يحفظون لذى ودَ آصرة وقرابة .

فهو لا يرضى منهم هذا السلوك ، لذا عاتبهم بقوله " أجدكم " [(١)] فهذا التركيب استفهام يراد به فى الأصل طلب التحقق ، وأصل مفاده : أتجدون فى فعلكم هذا [(٢)] ، أو أنتم جادون ؟ والجملة بعده مبينة للمقصود من الاستفهام ، أى هو استفهام لطلب معرفة نية المخاطب فى أمر لا يظن أنه محقق ، فالهمزة للاستفهام [(٣)] .

---

(١) ديوان النابغة ص ١٥٣ .

(٢) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٩ .

(٣) جِدّ : بالكسر ضد الهزل ، ولا يستعمل هذا الاستعمال إلا مضافًا إلى ضمير مخاطب واحد أو اثنين أو جمع ، وهو منصوب ، إما على المفعول المطلق الذى يجعل بدلاً من فعله ، والتقدير : أتجدون جدًا ، وإما على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل ، أى : أجاد أنت فيما تفعله ، فإذا جعلت " جدًا " مفعولاً مطلقًا كان الاستفهام متوجهًا إلى المصدر ، وكانت الجملة بعده حالاً ، وإذا جعلته حالاً كان الاستفهام متوجهًا إلى الفعل الذى فى الجملة ، وكان " جدًا " حالاً مقدمة تبعًا لتصدير حرف الاستفهام ؛ لأن المستفهم عنه هو الكون جدًا أو غير جد . (ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٩ .

هذا هو الأصل فى معنى هذا التركيب ، وحيث إن قوم النابغة قد فعلوا ذلك فإن الاستفهام حينئذ ينصرف إلى معنى العتاب واللوم والتأنيب .

وإنما عبر بهذا التركيب هنا بقصد الإنصاف ، وهذا أبلغ فى لومهم وعتابهم من أسلوب الإخبار ؛ لأن فى عرض الفكرة أو المعنى بأسلوب الاستفهام إثارة لذهن المتلقى ، وإنصافًا لتفكيره وعقله ، وإشارة إلى أن المتكلم لا يدعيها ، وإنما يقر له غيره بها ، فهو " يدع النفوس فى مواجهة الحقيقة التى ليس من الإنصاف إنكارها ، ووراء ذلك ما وراءه من وثاقة " [(١)] .

ولذا ترى أسلوب الاستفهام يكثر فى مواقف الانفعال ومواطن التأثير ، وحيث يراد التأثير وتحريك المشاعر وإثارة الوجدان .

والزجر : ردع وأخذ فوق يد الظالم ، والظلامة : الفعلة التى يتظلم منها المتظلم [(٢)] .

والمعنى : أتجدون فى كونكم لا تزجرون سفيهًا عن فعلة ظلم اقترفها فى حق غيره [(٣) (٤)] ، ولعله يشير بذلك إلى فعلة " يزيد بن سنان المرى " حين محش المحاش – القوم يجتمعون من قبائل شتى ، ويتحالفون عند النار – [(٥)] ، وهم بنو خصيلة بن مرة ، وبنو نشبة بن غيظ بن مرة ، على بنى يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فتحالفوا على بنى يربوع على النار فسموا : المحاش ، لتحالفهم على النار ، ثم أخرجهم يزيد إلى بنى عذرة بن سعد .

---

(١) دلالات التراكيب – د / محمد أبو موسى ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ينظر : لسان العرب – مادة " زجر " و " ظلم " .

(٣) ينظر : ديوان النابغة ص ١٠٢ .

(٤) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٩ .

(٥) القاموس المحيط للفيروزآبادى – مادة " محش " – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فالنابغة يعتب على قومه فى أنهم لم يزجروا هذا السفيه عن فعلته ، ولم يحفظوا ودًّا ولا آصرة .

وقد فعل النابغة هنا ما فعله فى البيت السابق من تقديم ماله اعتلاق بنفسه ، وتأثير فى حزنها وألمها ، فقدم الجار والمجرور فى " عن ظلامة " و " الذى ودّ " على المفعول به " سفيهًا " و " آصرة " مما يعنى تمكنه ووعيه بأدواته البيانية وألفاظه المعبرة عن معانيه وإنزال كل لفظة منـــزلتها وإيرادها فى مكانها من التعبير حسب مكانها من التعبير حسب مكانها ومنـــزلتها فى نفسه ، وهذا يعنى بدوره أن شعره كان صورة حية ناطقة بتجربته ومشاعره حسبما أحسها وعايشها ، وهذا هو السبب أيضًا فى تقديمه جملة العتاب على عدم زجر السفيه عن ظلامته ، على جملة العتاب عدم حفظهم لذى ود رحمًا أو قربة .

وتنكير " سفيهًا " يقصد به التوبيخ والتحقير .

وقوله :

فَلَـــو شَـــهدَت سَـــهمٌ وَأَفنـــاءُ مالِـــكٍ

فَتُعـــذِرُني مِـــن مُـــرَّةَ المُتَناصِـــرَه

لَجاؤوا بجَمع لَـــم يَـــرَ النـــاسُ مِثلَـــه

تَضـــاءَلُ مِنـــهُ بالعَشِـــيِّ قَصـــائِرَه

عتاب لبنى مرة الذين تناصروا عليه وعلى قومه ، وتشهير بهم وبفعلتهم .

وسهم ومالك : هما ابنا مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وهذان الحيان من أحياء مرة كانا غير معاديين للنابغة [١] .

---

(١) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ١٢٩ .

يقول : لو شهد هذان الحيان ما شهدته أنا من هؤلاء القوم (يقصد بنى خصيلة بن مرة ، وبنى نشبة بن غيظ) لرفعوا عنى اللوم العتابى بنى مرة ، ولحضروا ومعهم جيش لم ير الناس مثله ، تتصاغر منه عند العشى قصائره ، وهى : أرض أو جبل [١] .

وتبرز فى هذين البيتين حكمة النابغة ، ورجاحة عقله ، وترفعه عن الصغائر ، فهو لم يعتب على هؤلاء القوم إلا لما شهده منهم من ظلم شديد متجاهلين أياديه عليهم ، غير مكترثين بصلة الرحم والقرابة التى طالما دافع هو عنها وحفظها فى حله وترحاله .

والتعبير بأسلوب الشرط هنا يقصد منه تأكيد قوة الدافع إلى العتاب واللوم ، وإبراز حكمة النابغة وتعقله فى توجيه اللوم إليهم ؛ لأن ما فعلوه ظلم تجيش له الجيوش ، ولا يصبر عليه أحد .

وقوله : " جمع " يقصد به جيشًا كثيرًا عظيمًا ، فالتنكير فيه للتكثير والتعظيم ، وقد وصف هذا الجيش بوصفين :

أحدهما : قوله " لم ير الناس مثله " ، أى : لم يشاهد الناس مثلاً له فى الكثرة والقوة .

والآخر : قوله : " تضاءل منه بالعشى قصائره " ، يقول : من كثرة هذا الجيش وقوته تخشع " قصائره " وتصغر وتدق [٢] .

وفصل الجملة الثانية عن الأولى لأنها تأكيد لها ، فالجيش الذى تتضاءل منه الجبال وتصغر وتدق لاشك أنه غير معهود بين الناس ، فبين الجملتين كمال اتصال ،

---

(١) ديوان النابغة ص ١٥٣ .

(٢) ينظر : ديوان النابغة ص ١٥٣ .

وهذا هو سر فصل الثانية عن الأولى لما بينهما من شدة الترابط المعنوى فاستغنتا عن الربط بالواو .

والتعبير بقوله : " بالعشى " إشارة إلى وقت سير الجيش ، وأن هذه الأرض أو هذا الجبل يصغر ويدق حين يعبره أو يسير عليه هذا الجيش الجرار .

وتلك صورة بديعة ، وإبلاغ فى التعبير عن كثرة الجيش وعظمته وقوته .

وبعد أن احتج النابغة لعتابه ولومه ، عاد ليخاطب هؤلاء القوم خطاب تهكم وسخرية وتوبيخ على إبعادهم النابغة عن ديارهم :

لَيَهنَـــأ لَكُـــم أَن قَـــد نَفَيـــتُم بُيوتَنـــا

مُنَـــدّى عُبَيـــدانَ المُحَلِّـــئ بـــاقِرَه

أى : هنيئًا لكم إبعادكم بيوتنا عنكم ، فاللام للدعاء ، والمقصود من الكلام : التهكم والسخرية .

والنفى معناه : الإبعاد ، وهو يكون لأهل البيوت ، وإنما أوقعه على البيوت بقصد المبالغة فى التهكم والسخرية ، والإبلاغ فى تصوير بشاعة فعلتهم وسوء صنيعهم مع النابغة وقومه .

وقوله : " مندى عبيدان المحلئ باقره " مَثَل ضربه النابغة لحاله مع قومه بعد أن أقصوه عنهم وأبعدوه وقومه بعد أن كانوا أعزة فى ديارهم .

ومورد هذا المثل أن " عبيدان " كان عبدًا لرجل من عاد ، وكان مولاه ذا عز ومنعة ، وكان يُورد أول الناس ، فكبر ، فغلب عليه رجل من عاد – ويقال أن ذلك الرجل هو لقمان بن عاد – حتى قهره ، وكان لا يورد عبيدان إبله إلا بعد ما يرد غيره ، فضرب بعبيدان المثل لكل من طرد وأبعد [1] ، ولكل من ذل بعد عزه .

---

(١) ينظر : ديوان النابغة ص ١٥٤ .

والمحلئ : الذى يمنعها أن ترد الماء ، والباقر : جماعة البقر [١] .

وقد ضرب النابغة هذا المثل ليصور به حال الألم والحزن الذى تعيشه نفسه بعد أن أقصاه بنو مرة ، وذلك بقصد الإبلاغ فى عتابهم ، والتشهير بفعلتهم ، التى فجرت عند النابغة صيحة العتاب هذه ، والتى صدرها بحرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " الذى يتساوق مبناه ومدلوله مع مقام العتاب واللوم .

اجتماع " ألا " مع " يا " فى تركيب واحد :

التقى النابغة وعامر بن مالك وزرعة بن عمرو بعكاظ فقال لهما : ألا تصالحون إخوتكم – يعنى بنى ذبيان ، وكانوا مجدبين – فضمنا على عامر بن صعصعة – أى قبيلة بنى عامر – وضمن النابغة على بنى ذبيان ألا يتفاوروا حتى يُحيوا ، ثم جمعا خيلاً فأغارت عليهم ، أى على ذبيان ، فأصابت إبلاً ورعاءً ، ثم زعما أن عامر بن الطفيل هو الذى غدر [٢] فقال النابغة : " من الوافر " :

أَلا يـــا لَيتَنـــي وَالمـــرءُ مَيـــتُ

وَمـــا يُغنـــي عِـــنَ الحِـــدثانِ لَيـــتُ

غرمـــت غرامـــة فى صـــلح قـــيس

ولم يتفاســـدوا فيمـــا بنيـــتُ

فـــأبلغ عـــامرًا عـــنى رســـولا

وزرعـــة إن نأيـــت وإن دنـــوتُ

---

(١) ينظر : لسان العرب – مادتى " حلأ " و " بقر " .

(٢) ينظر : ديوان النابغة ص ١٧٣ .

أعاتـــب سَـــيِّدَىْ قـــيس جميعًـــا

وأخـــبر صـــاحبىَّ بمـــا اشـــتكيت

وهذه القصيدة [١] تمثل صيحة أخرى فى وجه الغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود ، وصرخة عتاب وشكاية وندم على أمل فى صلح قد فات ، ومن ثم استدعى النابغة حرف الاستفتاح والتنبيه " ألا " وجعله فى صدر كلامه ليطلق به هذه الصيحة ، ويصور تلك الصرخة التى ينعى من خلال قيمة الوفاء بالعهود ، كما ينفث عن مشاعره الحزينة ، ويبكى أمانيه التى بددها الغدر .

ولم يكتف النابغة هنا بـــ " ألا " بل ضم إليها حرف النداء " يا " ، وكلاهما من المقاطع الصوتية المفتوحة التى ترسل الصوت فى امتداد متسع لتعبر عن مشاعر الأسى والحزن التى ملأت عليه جوانحه فى هذا المقام ، فالمتكلم يأخذ منها أداة لصيحة يفرغ من خلالها لواعج الأسى والحسرة ، ويلفت انتباه من يسمع كلامه إلى معاناته وحزنه .

وقد ذكر العلماء أن " يا " فى مثل قوله : " يا ليتنى " نداء يفيد التنبيه ، ولفت الأنظار وإيقاظ الهمم ، وحرف المد فيها يجسد مأساة الشاعر ونواحه ، مثلها فى ذلك مثل " ألا " ، وفى دلالة " يا " على التنبيه ما لا يخفى من توكيد مضمون الجملة التالية لها [٢] .

---

(١) يبلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعة أبيات ، وقد اخترت منها أبيات المطلع لاشتمالها على الشاهد الذى تركز عليه هذه الدراسة . (ينظر : ديوان النابغة ص ١٧٣ ، ١٧٤) .

(٢) ينظر : الأدوات المفيدة للتنبيه فى كلام العرب – د / فتح الله صالح ص ١٢٧ – دار الوفاء – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

ولا يعنى ذلك اجتماع أداتى تنبيه فى تركيب واحد ، لأن " يا " فى أصل وضعها للنداء ، وهى باقية على أصلها هنا ، وإن أفادت التنبيه ولفت النظر فبالتضمن ، لأن مقصود النداء تنبيه المنادى ليقبل فى يقظة .

ويرى ابن جنى [(١)] – رحمه الله – أن " ألا " إذا جاءت معها " يا " خلصت افتتاحًا لا غير ، وصار التنبيه الذى كان فيها لـ " يا " دونها ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ على قراءة التخفيف [(٢)] .

ودخول حرف النداء " يا " على " ليت " يعنى أن الشاعر هنا يستدعى أمنيته التى تتعلق بها نفسه فيناديها تعبيرًا عن رغبته النفسية فى وقوعها ، وإن كانت بعيدة ، لأن التمنى : " تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون " [(٣)] .

---

(١) أورد ابن جنى هذا القول فى " ألا " ضمن حديثه عن (باب خلع الأدلة) ، ويراد بالأدلة أعلام المعانى فى العربية ، فالهمزة دليل الاستفهام ، و " إن " دليل الشرط ، وهكذا ، ويراد بالمعانى : المعانى التى تحدث فى الكلام من خبر واستخبار ، ونحو ذلك وأكثر ما يوضع لها الحروف ، والأدوات .

وخلع الأدلة : تجريدها من المعانى المعروفة لها والمتبادرة فيها ، وإرادة معان أخر لها ، أو تجريدها من بعض معانيها .

ومن ذلك قولنا : " ألا قد كان كذا " وقوله سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ سورة هود من الآية ٥ . فـ " ألا " هذه فيها هنا شيئان : التنبيه وافتتاح الكلام ، فإذا جاءت معها " يا " خلصت افتتاحًا لا غير ، وصار التنبيه الذى كان فيها لـ " يا " دونها ، وذلك نحو قول الله عز اسمه : ﴿ أَلاَ يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ سورة النمل من الآية ٢٥ . (ينظر : الخصائص لابن جنى ٢ / ١٩٥ ، وهامش (١) ٢ / ١٧٩ – تحقيق / محمد على النجار – الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر .

(٢) وهى قراءة الكسائى وأبى جعفر وابن عباس ، وقراءة الجمهور " ألاَّ يسجدوا لله " بتشديد " ألاَّ " . ينظر : النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢ / ٣٧٧ .

(٣) ينظر : لسان العرب – مادة " منى " .

وهو أيضًا : طلب حصول الشيء على سبيل المحبة مع عدم الطماعية فى وقوعه [١] .

المهم أن أسلوب التمنى يبث فيه المتمنى حاجات النفس ورغباتها ، ويسكب فيه عبراته وأحزانه .

وقد أحسن العلامة " ابن يعقوب " الكشف عن الحالة النفسية للمتمنى ، والأغراض التى يرمى إليها وراء طلبه لما يدرك أنه لا يكون فقال : " إن أصل التمنى إظهار الرغبة فى الفائت ماضيًا أو استقبالاً ، إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف للمخاطب ليرحم المتمنى وإما بمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس " [٢] .

إنها لمحة ذكية تجاوز بها ابن يعقوب حقيقة التمنى إلى ما يهدف إليه المتمنى من الشكوى والاستعطاف ، والاعتذار ، وما يجده من راحة النفس ، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس ، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه [٣] .

وبذا يتناغى أسلوب التمنى ويلتقى مع المعنى الدلالى والسياقى لـــ " ألا " و " يا " فى التعبير عن مقصود النابغة هنا والكشف عن حاجات نفسه ورغباتها ، وما تتطلع إليه من الشكوى والعتاب ، والترويح عن نفس حزينة مهمومة .

قوله : " والمرء ميت " جملة معترضة تقع موقع التعليل لتمنيه أن يكون قد غرم غرامة فى صلح أبناء قيس ، وكأنه يريد أن يقول : ليس الغرم بعظيم ، فإن موت المرء أعظم ، يعنى أن حوادث الدنيا كثيرة بعضها أهون من بعض [٤] فهو بذلك يسرى عن نفسه ويسليها ويصبرها على ما فات .

---

(١) ينظر : المطول لسعد الدين التفتازانى ص ٢٢٥ – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـــ .

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢ / ٢٤٠ " ضمن شروح التلخيص " .

(٣) ينظر : محاضرات فى علم المعانى – د / محمد الأمين الخضرى ص ٨٠ (بدون) .

(٤) ينظر : شرح ديوان النابغة ص ٧٠ .

وقوله : " وما يغنى عن الحدثان ليتُ " [1] اعتراض ثان لتأكيد معنى التمنى ، وبيان أن التمنى لا يغنى عن حوادث الحياة ، وأنه لا يكفى وحده لخوض غمار الحياة ، فما هو سوى نفثات مصدور يروح بها عن نفسه .

وقوله :

غرمـــت غرامـــة فى صـــلح قـــيس

ولم يتفاســـــدوا فيمـــــا بنيـــــتُ

يصور أمنية الشاعر التى تشتهيها نفسه ، وترغبها .

وتنكير : " غرامة " لإفادة التنويع والتعظيم ، والمعنى : ليتنى غرمت أى غرامة مهما عظمت ، ليتحقق الصلح بين أبناء قيس .

قوله : " ولم يتفاسدوا فيما بنيت " عطف على جملة التمنى السابقة ، وهذا يعنى أنها تشاركها معنى التمنى ، فهى تجسد أمنية أخرى تمناها الشاعر مجتمعة مع أمنيته السابقة ، أى : ليتنى غرمت ... وليتهم لم يتفاسدوا فيما أصلحت وأتيت فيما بينهم ، وهو يشير بذلك إلى لقائه مع عامر بن مالك ، وزرعة بن عمرو فى عكاظ ، حيث لم يحفظوا عهدهما معه فى ألا يغيرا على ذبيان ، فجمعا خيلاً فأغارت عليهم فأصابت إبلاً ورعاءً .

وقد عبر النابغة عن ذلك بأنهم تفاسدوا ، أى هدموا ما بناه وأصلحه بينهم ، وهى صيغة تبرز رغبتهم فى الإفساد وحرصهم جميعًا عليه ، وهذا ما زاد فى حزن النابغة وجعله يبعث رسولاً إليهما ليبلغهما عتابه الشديد ، وحزنه البالغ على إفساد محاولة الصلح بين أبناء قيس ، يقول :

---

(١) معلوم أن الحرف إذا أسند حكم إلى لفظه جاز أن يعامل معاملة الاسم فيظهر فيه أثر الإعراب ، كما فعل النابغة هنا فى " ليت " حيث أسند إليها الفعل " يغنى " ورفعها لفظًا .

فـــأبلغ عـــامرًا عـــنى رســـولا

وزرعـــة إن نأيـــت وإن دنـــوتُ

أعاتـــب سَـــيِّدَىْ قـــيس جميعًـــا

وأخـــبر صـــاحبى بمـــا اشـــتكيت

فقوله : " فأبلغ عامرًا " معطوف على ما سبق بالفاء ، لترتبه عليه ، بمعنى أن رسالة العتاب التى وجهها إليهما كانت بسبب إفساد ما أصلحه وبناه فيما بين أبناء قيس .

وقوله : " إن نأيت وإن دنوت " يقصد به بيان حرصه على إبلاغ رسالة العتاب ، مما يكشف عن حزنه العميق لما حدث مهما قرب أو بعد فموقفه من الغدر والخيانة لا يتغير ولا يتبدل .

وبين " نأيت – دنوت " طباق يكسب الكلام حسنًا وبهاءً وجمالاً ، ويبرز المعنى المراد فى ثوب قشيب ، يثير انتباه السامع إلى فكرته فيشتد تقبل الذهن لها ورسوخها فيه .

ومع أن قوله : " فأبلغ عامرًا " يحمل رسالة عتاب شديدة إليهما إلا أن النابغة لم يكتف بذلك بل صرح فقال :

أعاتـــب سَـــيِّدَىْ قـــيس جميعًـــا

وأخـــبر صـــاحبىَّ بمـــا اشـــتكيت

وذلك لأنه قصد إلى التهكم منهما ، والتعريض بمكانتهما التى تقتضى أن يسعى كل منهما جاهدًا فى الصلح لا فى الإفساد .

وقوله : " وأخبر صاحبى بما اشتكيت " تعبير عن شكواه وبث لأحزانه وآلامه التى حرص على أن يخبر بها صاحبيه ، ولعله يقصد بهما رفيقين له يبثهما شكواه .

ويمكن أن يراد بهما عامر وزرعة ، يذكرهما بما تقتضيه الصحبة من الوفاء والصدق ، وفى ذلك من التهكم والتأنيب ما لا يخفى .

النابغة هنا يقصد إلى أن يصغر إليهما نفسيهما ، ويذمهما على التفاسد وعدم الوفاء بالعهد .

* * *

الخاتمة

وبعد هذه الجولة الندية فى رياض شعر النابغة الذبيانى ، صاحب المكانة الأدبية الرفيعة لدى شعراء الجاهلية ، يمكن لنا أن نقطف الثمار الآتية :

١ – جاء التعبير بحرف استفتاح والتنبيه " ألا " فى مواقف الانفعال والغضب ، وفى مقامات مشحونة بمعانى الأسى والحزن ، ومن ثم كانت " ألا " بمثابة :

– زفرات يطلقها قلب مهموم يتألم لغياب القيم العربية .

– ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه ، وينبئ عن حاجته إلى لفت من يسمعه ، وإيقاظ وجدانه ليدرك مقدار معاناة الشاعر .

٢ – اتخذ النابغة من " ألا " أداة لصيحة يفرغ من خلالها لواعج الحسرة والألم ، ويشعر بها فى الجملة بما سيق الكلام لأجله ، وينبه له قبل البدء به ، وهذا هو حسن الابتداء [(١)] ، أو المطلع ، الذى عده الإمام " العلوى " ركنًا من أركان البلاغة [(٢)] ، وقد أثنى النقاد على النابغة بأنه كان من أحسن الشعراء مطالع ، وأجودهم مقاطع [(٣)] .

---

(١) حسن الابتداء أحد مواضع التأنق فى الكلام ، ويسمى براعة الاستهلال ، وهو : أن يكون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل إشارة لطيفة . (ينظر : بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٧٠٨ – مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م .

(٢) أفرد الإمام العلوى بابًا سماه (فى المبادئ والافتتاحات) وقد ذكر فيه أن هذا الباب ركن من أركان البلاغة ، وحقيقته آيلة إلى أنه ينبغى لكل من تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه أن يكون مفتتح كلامه ملائمًا لذلك المقصد ، دالاً عليه . (ينظر : الطراز العلوى ص ٣٣٠ – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

(٣) ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق / أحمد محمد شاكر ص ١١٩ ، ١٢٠ .

٣ – اقترنت " ألا " بأساليب الطلب (الاستفهام – التمنى – الأمر) فى تركيب واحد . فجاءت مع الاستفهام ثلاثة مواضع ، موضعين فى مقام الهجاء ، وثالث فى مقام الشكوى والعتاب ، ولهذا دلالته ، حيث إن أسلوب الاستفهام يكثير فى مواقف الانفعال والغضب وفى مواطن الثائر ، وحيث يراد التأثير وتحريك المشاعر ، وإثارة الوجدان .

وجاءت مع التمنى فى موضعين : أحدهما : فى مقام الاستعطاف والاعتذار ، والآخر : – وقد اقترن فيه التمنى بالنداء – : فى مقام العتاب والشكوى ، ومعلوم أن أسلوب التمنى يبث فيه المتمنى حاجات نفسه ورغباتها ، ويسكب فيه عبراته وأحزانه ، وبذا يتناغى مع " ألا " التى تشير إلى هذه المعانى فى ابتداء الكلام .

أما أسلوب الأمر فإنه امتزج مع " ألا " فى موضع واحد فى مقام العتاب والشكوى ، وذلك بقصد التعبير عما تجيش به نفس الشاعر من مشاعر وانفعالات .

٤ – اجتماع حرف النداء " يا " مع " ألا " لا يخلع عنها معنى التنبيه – خلافًا لابن جنى – رحمه الله – [(١)] ، لأن " يا " فى أصل وضعها للنداء ، وتفيد معنى التنبيه ، أما " ألا " فالتنبيه جزء من معناها الدلالى لا يفارقها ، فهى كما ذكر العلماء حرف استفتاح وتنبيه [(٢)] ، فالتنبيه فيها من قبيل الدلالة ، أما فى " يا " فهو من قبيل الإفادة ، وهذا ما سوغ اجتماعهما فى تركيب واحد بقصد تأكيد معنى التنبيه وترسيخه .

---

(١) يراجع كلام ابن جنى ص من هذا البحث .

(٢) ينظر : الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ص ٣٨١ .

٥ – مزج النابغة فى كلامه بين التصوير بألفاظ الحقيقة المتمثل فى دقة النظم والكلمات الموحية المصورة ، وبين التصوير بالخيال (التشبيه – الاستعارة – الكناية) ، وهذا ينبئ عن قدرته الفائقة على صياغة الصورة الشعرية بجميع جوانبها .

٦ – استعان النابغة فى شعره بالأمثال والموروث الشعبى وضمنها شعره رغبة فى تصوير معانيه ونقل مشاعره .

والله ولى التوفيق

أهم المصادر والمراجع

١ – الأدوات المفيدة للتنبيه فى كلام العرب – د / فتح الله صالح – دار الوفاء – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

٢ – الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – طبعة دار الشعب .

٣ – البرهان فى علوم القرآن للزركشى – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت .

٤ – بغية الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدى – مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م .

٥ – البناء الفنى للصورة فى الشعر – د / على صبح – المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

٦ – تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

٧ – الجامع الصغير للسيوطى – طبعة مصر ١٢٨٦ هـ .

٨ – الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى – تحقيق / فخر الدين قباوة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

٩ – حاشية الدسوقى على مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى (ضمن شروح التلخيص) .

١٠ – خزانة الأدب للبغدادى – طبعة السلفية .

١١ – الخصائص لابن جنى – تحقيق / محمد على النجار – الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر .

١٢ – خصائص التراكيب – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثالثة .

١٣ – دلالات التراكيب – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

١٤ – ديوان امرئ القيس – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – الطبعة الخامسة .

١٥ – ديوان حسان بن ثابت – تحقيق د / سيد حنفى حسنين – دار المعارف – مصر

١٦ – ديوان النابغة الذبيانى – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – مصر .

١٧ – ديوان النابغة الذبيانى – شرح وتعليق د / حنا نصر الحتى – دار الكتاب العربى – الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

١٨ – رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى – تحقيق / أحمد محمد الخراط – مجمع اللغة العربية بدمشق .

١٩ – شرح ديوان النابغة الذبيانى للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية

٢٠ – شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات لابن النحاس – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٢١ – شرح الكافية الشافية لابن مالك – تحقيق د / عبد المنعم أحمد هريدى – دار المأمون للتراث .

٢٢ – شرح المفصل لابن يعيش – طبعة عالم الكتب .

٢٣ – شروح التلخيص فى علوم البلاغة – طبعة دار السرور .

٢٤ – الشعر الجاهلى : دراسة فى منازع الشعراء – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م .

٢٥ – الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق / أحمد محمد شاكر – طبعة الحلبى .

٢٦ – طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٢٧ – الطراز العلوى – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

٢٨ – العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الطلائع ٢٠٠٦ م .

٢٩ – القاموس المحيط للفيروزآبادى – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٠ – قراءة فى الأدب القديم – د / محمد أبو موسى – دار الفكر العربى – الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

٣١ – الكشاف للإمام الزمخشرى – طبعة دار الفكر – بيروت .

٣٢ – لسان العرب لابن منظور – طبعة دار صادر – بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

٣٣ – المثل السائر لابن الأثير – تحقيق / أحمد الحوفى ، وبدوى طبانة – مكتبة نهضة مصر – الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

٣٤ – محاضرات فى علم المعانى – د / محمد الأمين الخضرى (بدون) .

٣٥ – المطول للعلامة سعد الدين التفتازانى – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٣٦ – معانى القرآن للفراء – تحقيق / محمد على النجار – دار السرور – بيروت .

٣٧ – معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس – تحقيق / عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

٣٨ – المعجم الوسيط – أخرجه د / إبراهيم أنيس وآخرون – مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٣٩ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام – طبعة الحلبى .

٤٠ – مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى (ضمن شروح التلخيص) .

٤١ – النابغة الذبيانى د / عمر الدسوقى – دار الفكر العربى – الطبعة السادسة ١٩٧٥ م .

٤٢ – النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى – إشراف : على محمد الصباغ – دار الكتب العلمية – بيروت .